١٥٠

روايات احلام

بحثاً عن وَجد

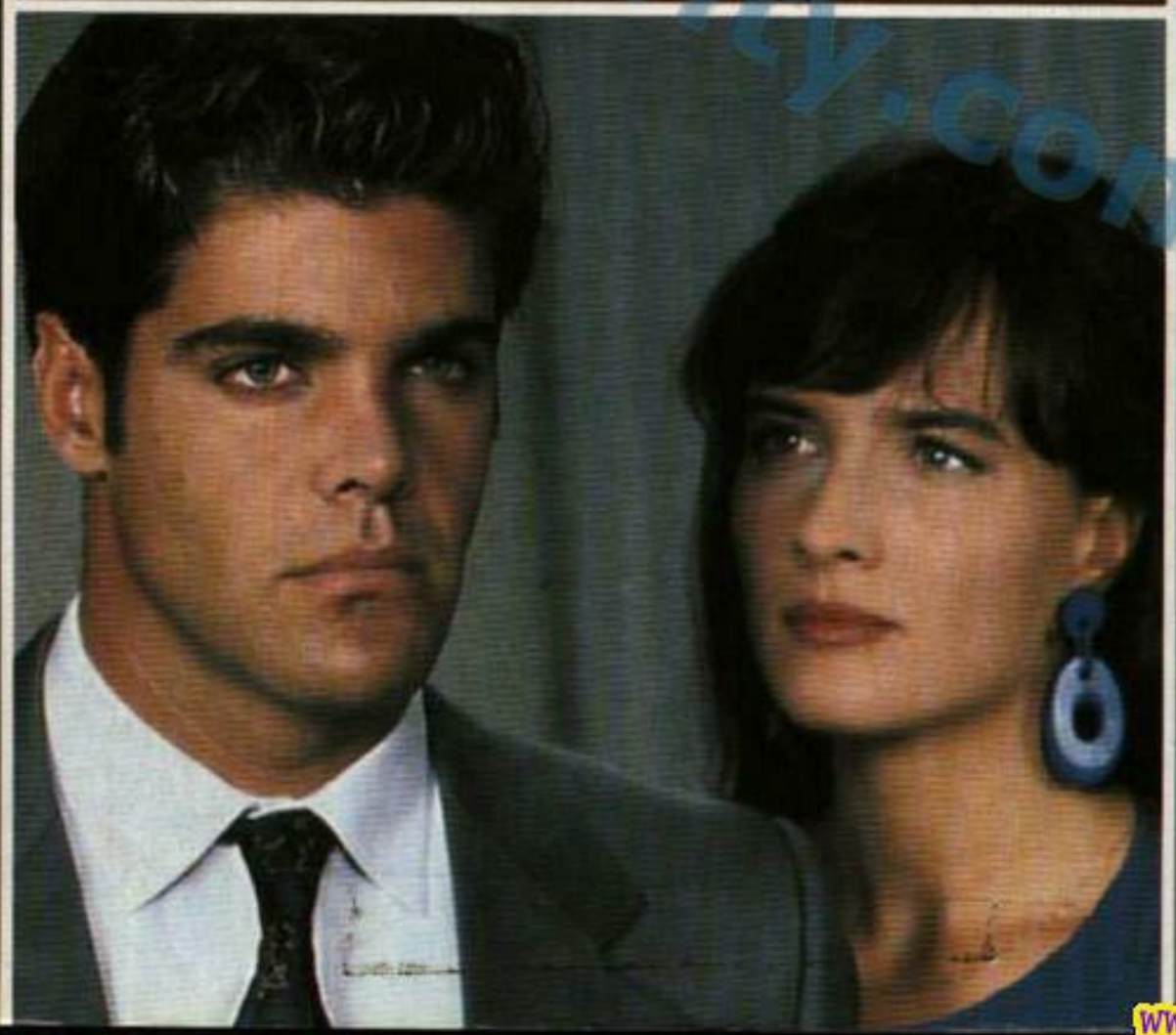

WWW.REWITY.COM

روايات احلام

بحثاً عن وجه

منذ أن وعت يارا على الحياة، عرفت أن نيرو جلادها وملاكها، نارها ونعيمها، وحبها الذي سيقتلها ولو بعد زمن... وظنت أنها وجدت حلاً عندما رحل، فقررت أن تذيق الرجال الذين يقتربون منها الألم دون أن تدع هذا الألم يمسّها، حتى عاد...

... قالت لها عيناه إن هذا اللقاء سيقرر مصيريهما وسينهي صراع العمر، فقبلت التحدي: هي أو هو؟ دمها أو دمه؟ حياتها أو حياته؟ مع أنها كانت تعلم النهاية سلفاً: سواء استطاعت أن تغرس خنجر الانتقام في قلبه أم كان هذا الخنجر من نصيبها ففي الحالتين ستحس بالألم نفسه!!...

16-4-2000

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات		
سوريا ٧٥ ل.س.	قطر ٦ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١.٥ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعودية ١٠ ر.	عمان ٦٠٠ ب.	العراق

WWW.REWITY.COM

١ ـ تعالي إلى أرض العجائب

كان وجه نيرو حذراً كعادته وعيناه السوداوان غامضتان وهو يتطلع إلى ريكي المستلقي في الفراش، وجهه بادي الألم.

قال نيرو: يارا لن تأتي أبداً.

هزّ ريكي كتفيه دلالة عجز وتألم، مما دعا زوجته هيلين إلى أن تسوي له الوسائد.. وقال ريكي بعناد:

ـ أريد يارا هنا! أريد توأمي. أوه.. كيف يمكن أن تفهم نيرو؟ أنت مغرور جداً، لا تحتاج إلى أحد.. لهذا ندور كلنا من حولك.. كما أعتقد.

سخر نيرو منه:

ـ كدوران النورس حول النفايات.

قطب ريكي:

ـ لماذا تحط من قدر نفسك دائماً؟

أكمل سخريته وهو يأخذ نظارته الشمسية:

ـ على شخص ما أن يفعل.. حسناً إذا كان هذا كل شيء..

صاح ريكي بنفاد صبر:

ـ هل ستأتي بها إلى صقلية أم لا؟

قال نيرو متشدقاً:

ـ لا أتصورها ستشكرني على هذا.. كان أمامها الكثير من الفرص للزيارة في السنوات المنصرمة.. أشك في أنها تلهث رغبة في أن تسير فوق التراب المقدس لقرية على قمة جبل بعيد.

www.rewity.com
WWW.REWITY.COM

احمر وجه ريكي:

- إنها لا تعرف كيف هو المكان هنا..

بدا فم نيرو متكبراً أكثر من عادته!

- ستتلقى صدمة حياتها لو اضطرت للتخلي عن المزيّن والطعام الجاهز.

- أنت مخطىء، فقد تكيفت أنا بعد حياة مريحة مماثلة. لنا الخلفية العائلية ذاتها، أنت وأنا ويارا.. وإذا استطعت أنت وأنا أن نعيش في «روكا» فلماذا لا تستطيع هي؟ أنا بحاجة أن أراها.. كوننا توأم يختلف عن أي علاقة أخرى. إنها جزء مني.

نظر نيرو إلى ريكي مفكراً بعينين قاسيتين:

- لم تكونا مقربين أبداً.

بدا الحزن على ريكي:

- أرجوك! لقد مررنا جميعاً في كل هذا.. وأنت مدين لي بمعروف.. سوف تحظى عما قريب بالسيطرة على الشركة، وهذا ما تريده وأنا أؤيدك. والآن، مقابل هذا، يمكنك مساعدتي على الصلح مع شقيقتي.

قال نيرو بخشونة:

- ستندم.. فهي ليست ملائمة للحياة البسيطة.

- ستحب «روكا» ما إن تتعرف على طريقها إلى هنا.. وهي لم تلتق بهيلين بعد.

ابتسم ريكي بمحبة لزوجته الذهبية الشعر.. لكن نيرو هز رأسه بغير موافقة:

- تحبها؟ فتاة المدينة؟ لا تخدع نفسك! لن تعجبها «المعكرونة» الريفية الخشنة، ولا الماء غير الكافي، ولا التسلية البسيطة. إنها معتادة على الحفلات وارتداء أفخر الملابس وعلى سيل الإعجاب.. ولن يكون هناك شيء من هذا هنا.

لكن ريكي كان متأكداً أن شقيقته التوأم ستشاركه حبه لبلدته.. خاصة إذا زارهم نيرو باستمرار. أليست معجبة بمثال نيرو البطولي مثله تماماً؟ ومثل

الجميع؟

قال ريكي مؤنباً: أنت كثير التشاؤم.

صحح نيرو له كلامه:

- تقريباً.. لكن هذا غير صحيح تماماً.. ومما أعرفه عن يارا أنها تحب التغيير والإثارة.. وليس الحياة الريفية البسيطة الصادقة.

- لا تسيء الحكم عليها.. حين تتعرف على المشاكل هنا، سترغب في البقاء.

ابتسم نيرو:

- ليس كل شخص نبيلاً مثلك.. أنت تطلب الكثير من أختك.. أن تتخلى عن وظيفة جيدة وأسلوب حياة تحبه لتعيش في بلد غريب.

- دع هذا الجزء لي.. أنا أسعى فقط إلى معروف منك.. يا صديقي ويا أخي بالتبني.. أقنعها! قل لها على الأقل إنني مريض وأريد رؤيتها ولو لزيارة قصيرة.. أيمكن أن ترفض هذا؟

قطب نيرو ناظراً إلى جسم ريكي الذي يمزقه الألم المستلقي بين شراشف بيضاء باردة. أدرك أنه كان يجب أن يعرف أن ريكي يؤمن كثيراً بالقيم العائلية منذ تزوج من هيلين اللطيفة.

وبدأ يقول: آخر مرة..

- آخر مرة كنا الثلاثة معاً.. ولم نستطع السيطرة على غضبنا.. وسيكون الأمر مختلفاً الآن. نيرو! أتذكر كم كنا نمرح عندما كنا صغاراً؟

- لا.. كان المرح لك، والجدية المميتة لي.

أوقف رد ريكي بنظرته الغاضبة.. إنه يحاول إعادة خيالات الطفولة التي لم يكن لها وجود سوى في مخيلة ريكي.. وما يخطط له لن يجلب سوى وجع القلب.. فالمغناج الصعبة الإرضاء يارا، أصبحت طائشة سطحية.. باردة القلب. ومن الأفضل لريكي أن يتمسك بخياله عن أخته المخلصة الحلوة المعشر بدلاً من تشتيت أوهامه.

قالت هيلين متوسلة:

WWW.REWITY.COM

ـ أرجوك.. جزء من ألم ريكي سببه فراقه عن شقيقته التوأم. أنت من بين كل الناس تعرف ما هو الحزن.. تعرف معنى الفراق عمن تحب.

ارتعد نيرو بالرغم من تلطيفها كلماتها بتعابير وجهها المتعاطفة.. وتمتم وخشونة خفيفة في صوته تفضح الألم في داخله:

ـ هذا أسلوب غير منصف هيلين.

ـ لكنه مؤثر كما أعتقد.

إنها ونيرو يفهمان بعضهما.

هز رأسه، فهي كذلك صقلية.. ومعتادة على استخدام أية وسيلة للحصول على ما تريد.. ولقد آن له أن يذهب قبل أن تنبش أعماقه أكثر وتضرب على مزيد من الأوتار الحساسة.

تنهد مستسلماً:

ـ تقع المسؤولية على رؤوسكم.

عانق هيلين، ثم صافح يد ريكي الساخنة وعانقه على الطريقة الصقلية وقال واعداً:

ـ سأجيء بها إلى هنا.. لكن سيلزمني الكثير من الإقناع.

استرخت خطوط العذاب على وجه ريكي:

ـ أعرف.. وأفضل أن تعتقد أن هذه فكرتها هي. تستطيع تدبير هذا أليس كذلك؟ كن مخادعاً. نيرو.. أنت سيد قديم في الخداع!

ضحك نيرو ولوّح مودعاً.. لم يكن لدى ريكي فكرة كم ينوي أن يكون مخادعاً.. لقد بدأ دماغه فعلاً في تقليب الخطط المعقدة..

لامست ابتسامة خفيفة عينيه، لا يجب أن تكون صعبة المراس.. إذا كانت تحب المرح كما تصفها سمعتها، فلديه ما يكفي من تسلية لحلوة عابثة.. سيوفر لها رحلة لن تنساها، ثم يأتي بها إلى أخيها قبل أن تلتقط أنفاسها.

وقد تكون رحلة مسلية!

وهو يسير عبر الأزقة الضيقة ونزولاً في شوارع وعرة إلى سيارته التي

أوقفها في الساحة الصغيرة، حاول النظر إلى القرية من خلال عيني يارا.

كان الظهر قد حل.. كان هناك هرج ومرج، مع اتجاه كل من في القرية إلى بيوتهم في سيارات مهلهلة أو دراجات نارية، أو على ظهر حصان مهزول، أو على الأقدام. أخذ نيرو سيكاراً من جيب سترته الداخلي وأخذ يراقب زحام السير، الصياح، الفوضى.. فجأة أصبحت الأزقة مهجورة.. وتوقفت كل الأحداث، لا وقع خطوات، أو طفل يضحك، أو جرس يرن.

أوه.. أجل.. سوف تكره هذا، إنه متأكد. الجدران الرطبة المتقشرة، الطرقات المرصوفة بالحصى الرمادية، الشرفات الصدئة.. وستعاف العزلة، وواقع أنها لا تستطيع الحصول بسهولة على ترف الحياة التي أصبحت ضروريات لها.. وسيروعها أن ترى قطاعاً كبيراً من القرية لا يزال مهجوراً، وقد أعلن غير آمن منذ أكثر من اثنين وعشرين سنة، ذلك اليوم الذي التقوا فيه جميعاً وبشكل عنيف غير طبيعي.. وقطب جبينه أمام سخرية القدر.

يجب أن تعود يارا إلى حياته وتخرج منها مجدداً. يجب أن يقنعها بأن تبيع له نصف شركة البناء، لكن يجب أن لا تحب صقلية.. من المهم أن ترى كل مساوئها. لو فاتها أي شيء من تلك الأشياء، فلسوف يشير إليها بنفسه.. لديه بضع حسابات قديمة يسوّيها، ولقد أصبحت بدون إرادة منها متورطة فيها.

لمعت عينا نيرو بالرضى.. وضم يديه في قبضتين وكأنه يستعد لمعركة.. لكن هجومه لن يكون جسدياً.. إنه أكثر مكراً. تربيته الإنكليزية، وتعليمه، لم يخمدا النار في عروقه ولا كيفا عدم الثقة الطبيعية التي ورثها عن قومه. لقد أمضى ردحاً من شبابه يقاتل ضد القيم الإنكليزية المتزمتة.

مسكينة يارا.. لن يكون ذكاؤها خلال دراستها دفاعاً كافياً ضده.

***

«هكذا كنت هناك تحت خيمة شاطىء، واندست يد مليئة بالشعر عبر فتحة الخيمة.. أمسكت حقيبة البحر القماشية، وضربت بها اليد.. ووقع الرجل على الخيمة فتهاوت علينا.. لكنني رجعت إلى الخارج، وحقيبتي

WWW.REWITY.COM

الثمينة في يدي، واللص المتسلل يتخبط بين الحبال لأرى جميع من على الشاطىء مهتمين بما حدث، وبينهم والدي» وانتظروا بقية القصة.

بدا أن يارا تنتظر من يسأل.. وضحكت تريش:

ـ وماذا قال والدك؟

ـ قال: هذه طريقة مبتكرة يارا.. وسار مبتعداً بهدوء!

رنت ضحكتها، وسرعان ما غرقت في أصوات المجموعة حولها.. ما عدا ألم مزعج في الجزء الأعلى من عمودها الفقري، كانت يارا تستمتع بوقتها، إنها مع أصدقائها وجاي الواقف بمحبة إلى جانبها.. كانت الحفلة التي كان يقيمها لها فوق مركب بخاري نهري يرسو على رصيف عند ضفاف التايمز، تبدو مرحة.

أضافت يارا:

ـ على أي حال.. بعت ذلك الأسبوع أملاكاً في «كان».. وسأل والدي ما إذا كنت قادرة على توسيع أعمالي على طول الريفييرا الفرنسية.. قال إننا سنكسب ثروة من هذا.

رفعت عينيها السوداوين المعبرتين إلى السماء للفكرة، وضحك كل أصدقائها.. كانت النساء تعرفن أن يارا جميلة بما يكفي لتتمكن من رواية القصص ضد نفسها، كانت ضحكاتهن ممزوجة بالغيرة.

كانت يارا مذهلة، شعرها طويل أسود مصفف بعناية يحيط بوجهها، ترتدي فستاناً مخملياً رقيقاً لتصبح ملفتة للنظر بشكل مميز.

لكنها كانت تعامل الجميع سواسية، رجالاً ونساء. ودية ومنفتحة.. وهي لم تتقرب يوماً إلى صديق امرأة أخرى.. ولهذا كانت النساء ممتنات لها.. بإمكانها أن تكون خطيرة إذا كانت عكس هذا..

تنهدت تريش:

ـ والدك رجل رجعي.

ـ يا للسماء لا.. إنني في الخامسة والعشرين وأعيش حياتي الخاصة.. لقد توقف عن ضربي منذ زمن طويل.

قال صوت بطيء متشدق من خلفها:

ـ كان هذا خطأ على ما يبدو.

لامسها الصوت من فوق كتفها وكأنه العسل اللاذع.

التفتت يارا مصدومة.. وجهها الجميل ضعيف، شعرها الأسود يتطاير في كل اتجاه، ثم استعادت رباطة جأشها، وعادت تلك المتحذلقة الماكرة المشرقة المستقلة من جديد..

صاحت بحرارة:

ـ نيرو! هل وجدت منشار حديد في قصعة طعام سجنك؟ أم أنك خرجت بكفالة؟ ما كنت لأعتقد أن دائرة الهجرة ستسمح لك بدخول البلاد مرة أخرى!

استوعبتها عينا نيرو دفعة واحدة ببطء متعمد، وبازدراء كامل.. لم يحاول إنكار اتهامها المجنون، وتساءلت لماذا.. هل تسببت له إحدى مغامراته التجارية بحكم سجن حقاً كما اقترحت؟.. لن تعرف ما قد يحصل مع نيرو! لطالما عاش على حافة الخطر.

قال ساخراً من تعليقاتها: المال يحرك.

وتركها بهذا تخمّن ما تشاء.. وأكمل:

ـ قبضتاي تكفلتا بالباقي.

ـ أوه.. الرشوة، والعنف. إنه أسلوبك تماماً.

بدت السخرية في عينيه استجابة للإثارة التي سرت بين الحضور.. ثم ارتدت نظرته السوداء إلى يارا.

ـ أوليس أسلوباً صحيحاً؟

ـ إذن كنت في السجن حقاً؟

ـ في الواقع.. كنت. لكن بقي معي ما يكفي من مال، وبطاقة، لأركب الباص كي أحضر حفلة الموسم.. هذه هي.. أليس كذلك؟

مالت يارا برأسها إلى جانب واحد.

ـ أنت كاذب.. أنت لم تركب باصاً طوال حياتك، وأراهن أنك تبالغ،

WWW.REWITY.COM

وتتابع المبالغة منذ آخر مرة رأيتك فيها.

ـ أنا دائماً أبالغ.. لا أتوقف عن هذا أبداً.

قست عيناه.. وسألت:

ـ أين هي بطاقة دعوتك؟ لا علم لي أن جاي يدعو سحرة الأفاعي إلى حفلاته.

نظر نيرو إليها متفرساً، وكراهية متكبرة على فمه المثير.. وحاولت يارا أن لا تفتتن به.. وأحست بالتوتر يتصاعد بينهما.. كما كان دائماً.

وقطب جاي:

ـ أنا لم أقم بدعوة أحد.. من هذا؟

رفع نيرو حاجباً، وتمكن من أن يبدو مهيناً. فنظرت يارا إليه تتطلع بسأم إلى جسده الأنيق:

ـ هذا؟ إنه نيرو فوغارتي.

لكن قلبها كان يخفق بشدة.. اللعنة على هذا الرجل! لقد صرع جميع من في الغرفة! ماذا في الرجال الإيطاليين يعطيهم مثل هذه الجاذبية التي يحسدون عليها، ومظاهر الرجولة المرغوبة الممنوعة؟

أكملت:

ـ إنه غضب إلهي قادم من ماضيّ.. حبيبي.

قالت تريش بحماس، تنظر إلى نيرو بعينين مهتمتين: ويا له من غضب!

قالت يارا بحدة:

ـ أجل.. إنه قادم مباشرة من الجحيم.. زميل لدراغولا.. إنه يطارد النساء، يغمس أنيابه فيهن ثم يتسلل من بين أصابعهن كالشبح.. وإذا كنت تعرفين قيمة إنسانيتك تريش، أبعديه عنك!

ـ أظن أن خيالك اختلط عليك هنا.. يارا.

تمتم نيرو بينما عيناه تطوفان ببطء في فستان تريش، تاركاً لابسته ترتجف للوعيد الذي وضعه في نظرته.. ثم أكمل:

ـ من المذهل ما يمكن لمصمم أزياء بارع أن يفصل من منديل ويضع

كشاكش صغيرة.. أليس كذلك؟

واستدار إلى جاي:

ـ أنا ويارا كنا مقربين جداً.. أتصور أنك لم تسمع بهذا..

نظر إليها جاي مرتاعاً، فأجفلت.. ماذا ينوي نيرو؟ لقد وتّر أعصاب الجميع.. وهذه موهبة خاصة به.. عينا تريش الزرقاوان كانتا مسحورتين بشكل ينذر بالخطر.. لقد أثارها على ما يبدو جو الهدوء والثقة بالنفس، وحركاته البطيئة المتعمدة.. كانت يارا، قد رأت أسلوبه في الحفلات من قبل.. كان يقف جانباً، يقيّم من تستأهل منه وقته.. ومن خلال هذا، كان يجذب النساء كمغناطيس يجذب شظايا الحديد..

سأل جاي بصوت مخنوق:

ـ يا إلهي!.. أكنت تعيشين مع هذا الرجل؟

أحست يارا بضغط الجمع حولها.. الجميع مذهولون لمعرفة المزيد عن هذا الوسيم الساحر. وأجابت متذمرة:

ـ لسوء الحظ.. كان عمري ثلاث سنوات يومها.. ولم يكن في علاقتنا شيء مما تظن.. كنا كأخ وأخته.

رد نيرو:

ـ أجل.. وكنا نتقاتل ككلب وقطة.

أطلق جاي أنفاسه ارتياحاً:

ـ أوه! ظننته يعني..

وضحك:

ـ هذا غباء مني.. كان يجب أن تكون لي ثقة أكبر بك. أنا آسف.

عرفت يارا لماذا سخر من نفسه لمجرد التصور بأنها تفكر بأية عواطف.. فجاي واحد من قلة من الرجال ممن عرفوها وتقربوا منها.. يارا غارينتي، لم تتورط يوماً بشيء حميم، إلا إذا كان عملاً تجارياً.. ووافقت مع جاي:

أجل.. غبي..

رفعت رأسها تحدياً.

قال جاي متذمراً مؤنباً: لم تخبريني عنه أي شيء حبيبتي!

هزت يارا كتفيها السمراوين.

ـ لم يكن هناك شيء مهم لأقوله.

تمتم نيرو:

ـ هل عنى كل هذا القليل لك، يارا؟

أحست بوجهها يتلون.. ومرت عينا جاي بارتياب على جسم نيرو المتعجرف.

ـ هذا الأخ بالتبني.. لا يحمل اسم عائلتك حبيبتي.

وضع جاي ذراعه بتملك حول كتفيها، وأرادت أن تنفض يده عنها.. لكن ليس أمام نيرو. بدلاً من ذلك، اندست به تسعى إلى شيء من المواساة بينما كان الماضي المزعج يعود إلى ذاكرتها.

قالت بصوت هادىء:

ـ لا.. لقد هرب وهو مراهق، وعاد إلى القرية التي ولد فيها.. نيرو كان ولداً صعب المراس.

لم تكن قد تكلمت من قبل عن نيرو أو ماضيها لأن فيه شيء كثير تريد أن تنساه، وهو يؤلمها.. وحده الحاضر يعطيها الإحساس بالأمان.. ولا حق له أن يفسد عليها حياتها السهلة بظهوره ثانية.

وتمتم نيرو:

ـ أي شخص مشاعره أعمق من المستوى السطحي، لا بد أن يكون من الصعب على عقل فراشة أن تفهمه.

هذه إحدى سخرياته، الإهانات الصقلية. وتعني اختبار سرعة لسانها في الرد أكثر من الأخذ بجدية.. وعرفت هذا من لهجته.. لكن جاي لم يفهم وفتحت فمها برد حاضر، لكن جاي أوقفها وصوته خطير:

ـ لا يارا.. اتركي هذا لي.

ضم ذراعيه بعدوانية ووقف في وجه الصقلي الطويل.. وأصبح حولهما بحر من الوجوه، وشمخ الجميع برؤوسهم ليسمعوا أو يروا.

فجأة وعت يارا كم يبدوان سخيفين! بدا جاي فارغاً مغروراً، والضيوف من حوله كالضباع التي تنسمت رائحة الفريسة.. وكان طيف ابتسامة يحاول الوصول إلى وجه نيرو وإلى فمه الصارم، ولمعان لا ريب فيه في عينيه.. لم يكن متسلياً ولا تلومه.. هذا الصراع كان بينها وبينه.. مسألة عائلية.. وليس مفتوحاً لأي غريب.

رفع نيرو حاجباً أسود ساخراً نحو يارا:

ـ يا لك من خائفة.. تتركين حبيبك يتكلم بدلاً عنك.

صاح جاي ساخطاً:

ـ يكفي هذا! أيها الوغد المهين! لن أتركك تنجو بفظاظتك مع «يارتي».

ارتفع حاجب نيرو أكثر: «يارتك»؟

انكمشت يارا في داخلها.. إنها تكره ما يقوم به جاي الآن.. لكنها لن تترك نيرو يعرف هذا. وقالت بنعومة:

ـ هذا دليل محبة.

تأوه نيرو يرمي رأسه إلى الوراء في حركة مسرحية ساخرة.. وفكرت يارا أنه يقوم باستعراض أمام النساء كالطاووس.

التوى فمها.. منذ زمن بعيد كانت سراً تجد لذة في التشاحن الفكري معه وقد نسيت كم كان تشاحنهما شديداً.. كان الوحيد الذي لديه ما يكفي من ذكاء حاد لمواجهتها.. وهي الآن تتشوق للرد عليه.

أجابها نيرو:

ـ هذا أسوأ من المغازلة المكشوفة.

رد جاي بحدة:

ـ لست أدري.. فأنا لم أجرب هذا أبداً.

ـ آسف.. فقد بدوت لي من النوع المجرب.

ردت يارا وهي تنظر بإثارة:

ـ إنه لا يفعل هذا.. على الأقل وأنا معه.

رفرف جاي عينيه ذهولاً. لكنه أخذ يتمتع بالتمتمة من حوله..

وابتسمت يارا.. جعلها عبوس نيرو السريع تحس أنها كسبت نصراً. لطالما كان متزمتاً تجاه أصدقائها من الصبيان وكأنها ملك له، بالطريقة ذاتها التي يحمي فيها الصقلي أن من واجبه حماية شرف أخته.. ويكره ساعة تلمح إلى إمكانية وجود صديق لها.

تمتم نيرو:

- ألا زلت معروضة للبيع؟

- وأنت ألا زلت تدفع الأجر؟

- أنا لا أدفع أبداً.

- ولا أنا.. وهذا يجعلنا..

- توأمين؟

أجفلت يارا، وشحب لونها.

قال بلطف غير صادق:

- آسف.. هل ذكرتك بمن كنت قد نسيته؟

- أيها النذل!

كان يعرف تماماً أنه ذكرها بالفراغ في حياتها.. ذلك الإحساس في أنها لن تحس أنها مكتملة أبداً.. وبدوره في هذا الفراغ. وكان هذا الأمر حرماناً مزدوجاً: خسارة ريكي، و.. أغلقت تفكيرها على الذكريات. لكنها ارتكبت غلطة في النظر إليه.. التقت عيناها المضطربتان بعينيه لتربط فيهما الشفقة.. وهذا ما جعلها تفقد توازنها وترتبك للحظات.

بدأ حاي بغضب:

- اسمع فوعادتي..

همست يارا من بين أسنانها، عيناها تبرقان بشكل خطير:

- ابق بعيداً عن هذا نيرو إذا كنت هنا لتطلب مني الصلح مع ريكي، فانس الأمر.. إنه يقوم بكل ما بمكنه ليؤلم والدي ويشوه سمعته. ولن أكون عديمة الولاء لأبي.

- وما الذي يجعلك تظنين انني أريد ان اجمعكما معاً؟ فقد تبدآن في عمل

شيء مفيد لشركة البناء.. وقد يشكل هذا منافسة لشركتي. وبالتأكيد من صالحي أن أجد أي توسع لشركتكم.

إنه على حق.. وأغضبها صدق قراءته للموقف بالنسبة لشركة البناء.. هي وريكي يجتمعان مرتين في السنة فقط في اجتماع مجلس الإدارة في المدينة، ويقضيان النهار كله في الجدال.. خططه لم تكن آمنة مالياً أبداً، يسيطر عليها شغفه بالبناء في صقلية.. وهذا أمر محفوف بالصعوبات، وهي التي تملك الدماغ العملي البارد.. ويثير توترها أن يضطرا إلى التنازل والعمل في مشاريع صغيرة في انكلترا وهو أمر كان دائم الاعتراض عليه. ومن حسن حظها أن الشركة لم تكن مصدر دخلها الوحيد.. لو لم تكن تعمل كسمسارة أراضي، لوجدت أن من الصعب دفع متطلبات حياتها.

كان نيرو ينظر إليها متسائلاً.. وكأنه يريدها أن تتابع الموضوع.. وأحست يارا بالفضول.. فهو لا يتنفس بدون غرض خفي، لا يرف له جفن أو يسحب السيكار من جيبه العلوي بدون أن يسعى إلى تأثير ما.

سألته بصراحة: لمَ أنت هنا إذن؟

تمتم:

- تخيبين أمل يارا.. أليس من التسلية أكثر أن تحمني؟ أذكر أنك يوماً كنت تحبين اللعب.. فهل اللعب الآن محصور فقط في الأماكن الخطيرة كغرفة النوم!

ردت بحدة: وأين غيرها؟

فكرت: كم سيندهش حين يعلم كم تجهل وقائع الحياة.. ولو عرف لامتلك سلاحاً مهلكاً يحاربها به، وسيتأكد أن يعرف كل أصدقائها أن لا خبرة لها أبعد من الأمور الأساسية المبدئية. وهذا سيشوه صورتها التي بنتها بحذر كي تبدو امرأة ذكية عملية خبيرة بالحياة.. وهذا أمر يحميها من الرجال.. فهم يعتقدون أنها ترفضهم لكونهم لا يلتقون مع مقاييسها المناسبة.

لكن يارا الضعيفة كانت تخشى دائماً توريط نفسها مع رجل، ثم يهجرها.. ولم يكن من الصعب معرفة سبب هذا الخوف.. فكل الرجال في

حياتها المبكرة تخلوا عنها بطريقة أو أخرى. وأكملت تسأل:

ـ حسن جداً.. أعطني دليلاً.

مد نيرو يده إلى جيبه ليسحب منديلاً من الحرير الأسود يحمله دائماً.. ثم دفعه بجرأة في ياقة فستانها.. وقال بصوت وقور:

ـ الدليل رقم واحد.

لم تفعل شيئاً لتوقفه.. ليته يتعفن!.. إنه لا زال كما هو، ساخر لا يتأثر بشيء.. كعادته.

قالت بخفة:

ـ وهل نظفت لي عنقي بهذا؟

رعد نيرو ضاحكاً.. أسنانه البيضاء مذهلة في وجهه الأسمر. ورأت يارا بعض النساء يهندمن أنفسهن.. سيأسفن على هذا لو أنهن تعلقن به. قال نيرو مبتسماً: تقريباً.

ـ ابتعد عني.. عطر ما بعد حلاقتك قوي جداً.

استدار جاي محمر الوجه إلى يارا وسألها بفم متجهم: هل تريدين هذا..

تململت بسأم.. عدم الاكتراث سيكون أفضل دفاعاتها.

ـ إنه لا يزعجني.. وقد يسلي ضيوفنا.

يسلي! قد يفسد الجميع قبل انتهاء الأمسية. فنيرو، حسب قول والدها، يتحرك في صحبة سيئة.. الشائعات تقول إنه يتمتع بتعليم ما يعرفه للآخرين. ورأت يارا تريش تمرر لسانها على شفتيها، وحاولت أن لا تعترف بطعنة الغيرة التي أحست بها.. وقال نيرو يرد عليها:

ـ سأفعل ما بوسعي.

قالت:

ـ تعال جاي.. دعنا نرقص.

لكن في رأسها وقلبها كان هناك نغم واحد تسمعه يتردد مع إيقاع الرقص: نيرو عاد إلى لندن.. نيرو عاد إلى لندن.

عيناها البنيتان العميقتان لاحظتا أن معه باستمرار اثنتين من النساء.. كانتا تتحدثان إليه بلهفة، كل منهما تحاول لفت اهتمامه.. وكان ينظر إليهما باهتمام مثير على وجهه.. وغطى العبوس وجه يارا..

أدارت يارا عينيها بوله مصطنع إلى جاي، تضع يدها على كتفه.. من تحت جفنيها رأت أن عبثها لم يفعل شيئاً لنيرو، لكنه فعل الكثير لجاي.. فشدها إليه بخشونة.

كعادتها، أخفت تأثرها بحركاته ولم تغمض عينيها. من فوق كتف جاي رأت نيرو يلاحظ بهدوء عدم تركيزها، ونظرة تسلية على وجهه وكتف تريش تحت إبطه..

التفتت تريش إليه حتى لامست أصابعه كتفها، لكنه لم يستجب إليها، عدا أنه ترك عينيه تتراقصان قليلاً ونظر إلى يارا وكأنهما يتشاركان سراً ما.

أغمضت جفنيها بقوة وتمنت لو تتمتع بعناق جاي لها..

بسبب وجود نيرو هناك، وبحماس مدروس دفعت نفسها إلى شبك يديها في شعر جاي، الذي تمتم حالماً:

ـ حبيبتي! أنت تجعلين العالم يتوقف بالنسبة إلي!

تألمت يارا في داخلها، خاصة وهي ترى أن أذني نيرو الحادتي السمع تلتقطان إعلان جاي، من زاوية عينيها، رأت تريش تحاول لفت نظر نيرو.. وكان يتجاهلها، وهذا ما يدفعها إلى الجنون.. وفكرت يارا: خطته هذه تنجح دائماً.

ـ يارا؟ هل تسمعين؟

ـ أجل.. جاي.

ضمها أكثر، حتى أنها لم تعد ترى نيرو. حين تراجع عنها قليلاً بقي ممسكاً بها، وحاولت أن لا تعارض وهي تنظر مباشرة إليه:

ـ أعرف أن والدك ثري يارا.. لكنني بدوري ثري معروف في المدينة.. ولو أبقيت أنفي مدسوساً في العمل لسنتين تاليتين..

صمت لسماعه ضحكة ابتلعتها يارا. وسأل:

- هل هناك شيء خاطيء؟

قالت صادقة: ألم في عنقي.

لكن غريب كيف يبدو كل الرجال بدون لياقة أو أناقة إلى جانب نيرو!

وتابع جاي:

- على أي حال.. أعتقد أنني قادر على استغلال اتصالاتي الواسعة وأصبح بارعاً مثل والدك.. أنا معجب به فهو لا يسمح للعواطف أن تقف في طريقه. وهذه هي طريقة العمل، مثلك تماماً. لديك سمعة وأنف حساس.

حاولت يارا أن تركز على ما يقول، وسألت:

- أتحاول قول شيء لي؟

حاولت كذلك أن تفهم سبب أهمية أن تكون ابنة مارتن غارينتي بالنسبة إلى جاي.. وأحست ببعض الامتعاض يدغدغ رأسها.. لا أحد يريدها لنفسها.. هناك دائماً سبب آخر.

وسمعته يكمل:

- أوه.. حسناً.. أقول لك إن مستقبلي سيتأمن مع شيء من المساعدة.

- شيء من المساعدة.. أعتقد أنك ستكون مفيداً في العمل لوالدي

وكانت بهذا تختبر ما يريد.

تهلل وجه جاي:

- حبيبتي! كنت أعرف هذا! هل تظنين أنه سيقبل بي؟ يارا.. أعرف أن مئات الرجال لا بد قالوا لك هذا.. لكنني.. يا للعنة! ماذا يجري؟

تركزت عيناه المذهولتان على ضفة النهر.. أحست يارا بالمركب يتحرك فجأة إلى الوراء، ثم يتحرك بضوضاء عالية بعيداً عن مرساه.. ورأت بذهول أن أحداً قد أفلت الحبال التي تربطه إلى المرسى.

أضاءت عيناها طرباً والتفتت إلى غرفة القيادة حيث لوّح نيرو لها من هناك.. وتملكها الضحك بينما بدأ أزواج الراقصين بالتهاوي لعنف الحركة، وبدأت الكؤوس والأطباق على الطاولات تنزلق إلى النهر.

لم تقل كلمة. خلعت حذاءها الفاخر المرتفع الكعبين، وتركت جاي

المرتبك الذي بدا غير قادر على فهم النكتة.. وبقدمين حافيتين ركضت تصعد السلالم نحو غرفة القيادة.

فتح نيرو لها الباب وانحنى ساخراً يدعوها للدخول ثم أقفل الباب خلفها.. مد يده إلى عمود صغير أمامه ودفعه بقوة إلى الجانب. ارتجف المركب.. ثم اندفع إلى الأمام.. ورمت الحركة يارا فاقدة التوازن لتقع بين ذراعي نيرو المنتظر.

سألته يارتياب تحاول تخليص نفسها:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- أسلي ضيوفك.. كما طلبت.

- بإغراقهم في التايمز؟

ضحك:

- لقد أنعش هذا الأمور قليلاً.. أليس كذلك يا صغيرتي «الكاساتا»؟

منعها دفق ذكريات متسارعة من الرد.. وهما صغيرين، كان دائماً يدعوها «كاساتا».. لطالما أحبت الآيس كريم بالفاكهة، وكان دائماً يدعها تأكل حصته.. ويطعمها من ملعقته.. التقت عيناها عينيه، وعرفت أنه يتذكر ويحنان.. إنها ذكرى حلوة ومرّة.. مثل رؤيته يبتسم وهذا ما فعله.. حين كان يرمي بتلك الابتسامة المنفتحة المميزة كانت عيناه تبرقان وتفقدان قساوتهما ويسترخي وجهه، يصبح ناعماً ودوداً، وعلى شرف تلك الابتسامة يأتي الخطر والبهجة معاً.

لم تحاول يارا التهرب من قبضته الثابتة الواثقة، فقد يبدو هذا وكأنها تجد قربه منها مخيفاً.. بل نظرت إليه ترفع حاجباً متسائلاً:

- لا زلت مجنوناً، سيئاً، وخطراً على من يعرفك.. هل حقاً تعرف كيف تقود هذا الشيء؟

صفع جبينه بيده.. وصاح بحركة درامية وهو يبعدها جانباً:

- ماما ميا! لقد نسيت!

قالت توبخه وتراقب ما يجري:

ـ لا أحد أبداً يقول ماما ميا!

كان المركب يتجه نحو زورق كبير لنقل البضائع في التايمز.. وكان الجميع يصيحون، ورأت جاي يقفز صعوداً على السلم إلى غرفة القيادة ووجهه أسود من شدة الغضب.

قال نيرو:

ـ إنهم يقولون هذا في الأفلام السيئة.

ضحكت يارا:

ـ يا إلهي!.. وهل سيتحول هذا إلى فيلم سيء؟

صحح نيرو مسيرة المركب ثم انحنى بأدب لجاي الذي أخذ يضرب باب الغرفة بغضب.. وأخذ يخلع سترته.. وساعدته يارا.. العطر الخفيف الدافىء المنبعث من جسم نيرو ملأ حواسها.. وابتسمت عبر الزجاج في وجه جاي، وصاحت:

ـ حفلة رائعة..! هذه مفاجأة ذكية من مفاجآتك!

صاح جاي: دعوني أدخل!

شدت الباب، ثم فتحت يدها بانهزام.. فكوّر جاي فمه لكنه قرر الاستفادة من الموقف.. فضيوفه كانوا يضحكون ويشيرون إلى نيرو، وكأنهم يجدون في هذا أفضل جزء من الأمسية حتى الآن.. ولم يجرؤ جاي على خسارة ماء وجهه، وصاح:

ـ سأحاول أن أجد مخلاً أو شيئاً ما.

تمالكت يارا نفسها بوقار إلى أن ابتعد لتنفجر بالضحك. استندت متهالكة على الحاجز.. وقالت تشعر بالأسى على جاي الذي لا أمل له مقارنة مع نيرو الغريب الماكر غير التقليدي:

ـ لقد أفسدت كل شيء عليه.

ـ أوه.. أنا أكره كل ما هو أخرق.. ألا تكرهينه؟

سألت متسعة العينين: أي أخرق؟

قال بصدق كاد يدفعها إلى الجنون:

ـ كبداية، أن يختار لحظة اهتمامك فيها منصب على مكان آخر، ليطلب منك شيئاً.. هل كنت ستقبلين؟

ـ أقبل ماذا؟

ـ حسناً.. أعتقد أن حبيبك كان سيطلب يدك من والدك للزواج.

انطلقت ضحكة مكبوتة قبل أن تستطيع منعها. وقالت:

ـ العمل عمل.

ـ وهل طلب الزواج عمل؟

ـ ولمَ لا؟ من المنطقي أن يكون المرء واقعياً وعملياً. فالعواطف لا تدوم سوى لوقت قصير.. أما شراكة العمل فيمكن أن تدوم أكثر.

ضاقت عينا نيرو:

ـ العاطفة الحقيقية تدوم إلى الأبد.. وأنت لم تلتقي بمثلها بعد.. أو إذا كنت التقيتها فأنت لم تتعرفي إليها.

قالت بهدوء:

ـ أنت تخدع نفسك نيرو.. عواطفك تدوم المدة الكافية لإيصال امرأة إلى ما تريده منها.. وهذا بالكاد يمثل رغبة العمر.

ـ لا يجب أن تحكمي على مشاعري على أساس مشاعرك.

ـ وأنت لا يجب أن تسترق السمع على الناس.

سأل متصنعاً الذهول:

ـ وكيف لي أن أعرف كل ما يدور؟ لا تقبلي طلب زواج عمل.. لا تنهي نفسك مع جاي.. فكري بكل أعضاء مجلس الإدارة وزوجاتهم المضجرات.. وحفلات عشاء العمل والواجب والأحاديث حول أسعار الأسهم. سيكون هذا مملاً جداً!

لكمته كما كانت تفعل وهي طفلة.. غير أنها الآن أحست بالفرق بين الصبي النحيل والرجل القوي الواقف أمامها الآن، وأسدلت قبضتيها إلى جانبيها.

ـ ربما يعجبني كل هذا.

- إذا كان طلبه يضجرك ويجعل عينيك لامعتين فماذا تعتقدين ستكون السبعين سنة المقبلة؟

كشرت في وجهه:

- سبعين سنة! يبدو لي هذا كحكم بالسجن المؤبد، ولا أظن أنني قادرة على العيش مع أحد لهذه المدة.. أتقدر أنت؟

ابتسم ابتسامة غامضة:

- هذا يعتمد على ما إذا كنا سننجو من هذه الرحلة أم لا.

رقصت عيناها في وجهها:

- إلى أين سنذهب؟ إلى أرض العجائب؟

قال بنعومة:

- هل تحبين الذهاب إلى هناك يارا؟ إلى أرض خيالية حيث الأطفال لا يكبرون أبداً؟

اكتأبت مع لمعان عينيه الحادتين في عينيها، وأحست نفسها في خطر الوقوع عاجزة تحت سحره.. لن تدعه يؤلمها مرة أخرى.. إنها الآن تسيطر على حياتها بصورة تامة، واثقة، متأكدة من نفسها.. وهي قاسية باردة القلب.. هذه حفلة ولسوف تمرح..

وضعت يدها على جبهتها في حركة بطيئة، وصاحت:

- فات الأوان.. لقد بدأت الخطوط تظهر.. إنني أتشقق.. عملية التقدم في السن بدأت.

لذعرها، مال نيرو إلى الخلف نحوها، وأحست يارا بفرح معذب وأصابعه تمر فوق بشرتها الناعمة.. وقال:

- لا أستطيع أن أرى شيئاً.. وجهك يخلو من أية شائبة.. مع الاعتراف بأنني أرى تغيراً في جسمك.

وأمعن في تأمل تكاوينها بدقة محرجة، وأحست يارا بالألم يقطع معدتها وهمست لنفسها: يا إلهي كيف كنت أتسلل إلى غرفته صباحاً وأراقبه وهو نائم، وكيف كنت أكتم أنفاسي خوفاً من إيقاظه؟

قالت ساخرة:

- اللعنة! هل رأيت ساقي الخشبية؟

تظاهرت بالحرد.. لكن أعصابها كانت مشدودة. إنها معتادة على إعجاب الرجال بها، لكنها لم تحس يوماً بمثل هذه الأنوثة الطاغية في إدراكها لجاذبيتها.. وبدا لها أن هناك عاصفة كهربائية تتفجر بينها وبين نيرو في هذه المسافة القصيرة بينهما.. كل جزء منها كان مشحوناً، وهي من تتلقى الأسوأ من تلك العاصفة.

- يارا! كم هذا مخيب للآمال.. لقد أصبحت بطيئة في ردودك.. لا شك أن السبب هو الصحبة التي تعيشين فيها.. ولو كنا نعيش في أرض الخيال.. ألن تكون هذه إعاقة لك؟ على أي حال.. يمكن أن تكون لك ساقين خشبيتين ولا أستطيع رؤيتهما..

بحركة عميقة، تركها ليولي اهتمامه إلى إدارة المركب.

ابتلعت يارا ريقها، تتساءل لماذا لم يستفد من الموقف ويعانقها..

قالت تدافع عن نفسها:

- لا زالت لي ذات المقاسات منذ كنت في السادسة عشرة.

قال ساخراً:

- همم.. ربما تكون اللفافة تحمل ذات المقاسات، لكنك الآن تعرفين كيف تتصرفين بمحتوياتها.

- حسن جداً، اللفافة ليست معنونة باسمك، فدعها وشأنها.

كانت عيناه الحادتان تبحثان في النهر أمامه، وكأن لا وجود لها.. ثم تمتم بدون أن يحرك نظره عن النهر:

- هذا ما أنويه.. ليس من عادتي استلام لفافة ليست مرسلة إلي.. ثم أي واحدة موضبة بمثل هذه البهرجة الرخيصة، تحصل على عدد من الرجال يتولون أمرها.. وهذا ما يزيد المخاطرة بأن تصبح فاسدة.. من المخجل أن البضائع المتضررة لا يعود لها أية قيمة حين تصل إلى مستلمها الأخير.

شهقت:

ـ أيها الوغد المهين؟

ـ أنت فعلاً تخيبين أملي في لجوئك إلى الشتيمة. أرى أنني سأضطر إ
إعادة تثقيفك بالنسبة لمسألة الإهانات هذه.. لقد فقدت كل براعتك.

ردت بحدة:

ـ أنا بمنتهى الصراحة في حياتي اليومية.

ـ هذا مضجر.. لا بأس عليك لسوف تتعلمين مني براعة الرد المناسب

قالت بغضب:

ـ أتمنى أن تقول لي لماذا أنت هنا حقاً؟

كان يزعجها أنه لا زال قادراً على معاملتها كأخت صغيرة، بالرغم م
كونها الآن امرأة أعمال ناجحة.. لن تتغير نظرته إليها مهما كانت تبدو.

لقد آن لها أن تدرك أنه من الأفضل لها أن لا تكون هدف اهتماماته.

وسمعته يقول رداً عليها:

ـ أنا هنا للسبب عينه الذي جئت من أجله. لأحصل على شيء من المر
وأقضي أوقاتاً مسلية.

ـ أنت لم تحصل يوماً على مرح مناسب في حياتك.

ـ صحيح.. المرح غير المناسب فقط.. إنه أفضل نوع للانغماس فيه.

وليس من المهم أن يسير المرء وضحكة غبية على وجهه ليحصل على المرح. أ
أحصل عليه سراً.. وأتمتع به أكثر.. كل ما يحتاجه المرء هو القدرة عل
العيش ببساطة كما سنفعل.

لمعت ابتسامته في عتمة الغرفة.. وعرفت تلك النظرة الخبيثة في عينيه.

إنها تنبىء بمغامرات كثيرة.. وبدأت تقول:

ـ لا يمكنك اقتحام المكان هنا وأخذي معك.. جاي يقيم هذه الحفلة
لي.

ـ وأنا أقيم هذه الحفلة لنا.. هل تريدين الطيران والمضي في «المغامرة
الكبرى» أم البقاء في وجار الذئب مع المربية؟

ارتجفت شفتاها المشدودتان ثم انفرجتا عن ضحكة كبيرة.

ـ أنت لا تنصف جاي.

ـ طبعاً.. فأنا لا ألعب لعبة تتفق مع القواعد، وهناك كتيب مشهور عن
اللعب.. يبدأ بالقاعدة الأولى: حاول دائماً استراق النظر إلى أوراق
خصمك.. حسناً؟ هل سنطير بعيداً عن السأم؟ هل ندخل بعض السحر إلى
حياتنا؟

ـ سنحتاج إلى الغبار السحري.. ثم إنني لا أرى الجنية الصغيرة.

ـ هذه ليلة استراحتها.. ها نحن الآن، راقبي هذه القيادة النظيفة.

وهي خائفة للسرعة التي كان المركب يقترب فيها من المرسى المزين
بالأعلام والبالونات تمسكت بكمه، فأسرع إلى ضمها إلى جانبه، بحيث وقفا
جنباً إلى جنب وهي ترتجف.. قال يطمئنها:

ـ لا تقلقي.. أنا لم أفعل هذا من قبل.

ـ أوه.. لا بأس في هذا إذن.

هدرت المحركات في حركة عكسية إلى الوراء، واختطف نيرو سترته
وفتح الباب يدفع يارا لتنزل السلم، ويمران بجاي في طريقهما. وقال له نيرو
وهو يركض نحو جانب المركب يجر يارا معه:

ـ من الأفضل لك أن تتولى القيادة.. فهناك رجل متوتر المظهر يعتمر قبعة
رسمية قادم عبر التايمز.

ـ نيرو.. جاي..

قاومت يارا دونما رغبة كاملة.. كانت تريد الذهاب مع نيرو لكن
النظرة على وجه جاي أزعجتها.

ـ اقفزي!

ـ أوه.. يا إلهي!

وجدت يارا نفسها في قبضة حديدية وطائرة في الهواء نحو رصيف
خشبي.. وتقلبت مع نيرو، تحس بقساوة جسمه.

للحظة، استلقيا جامدين، مقطوعي الأنفاس، وعرفت أنه سيعانقها..

***

٢ ـ لن تستسلم كزهرة ضعيفة

ملأت خيبة الأمل والارتياح معاً رأس يارا حين لم يعانقها.. وبدلاً مما توقعت، كان يبتسم لها بسخرية وتساءلت عما إذا كان يتعمد إزعاجها. جلست لترى جاي يتصارع مع أجهزة السيطرة في المركب وهو يتراجع إلى الخلف نحو مركب بخاري سريع رسمي المظهر.

صاح نيرو:

ـ انظري إلى الزينة بإعجاب، ثم علينا أن نهرب بسرعة. أخشى أن لا تكون الجنية قد تركت لي ما يكفي من الغبار السحري.. فطيراننا لم يكن ناجحاً جداً.. أليس كذلك؟ أسرعي!

فتحت يارا فمها تحتج بصوت مرتفع وهو يرفعها على قدميها، ويبدأ بجرها نحو سيارة رياضية مكشوفة.. رفرفت عينيها بنفاد صبر، فانحنى يحملها مبتسماً لعينيها، وأنزلها في السيارة..

وبيطء أقفل حزام المقعد وأحست كحيوان برّي عالق في الفخ، مذعور، يراقب اقتراب الصياد منه..

لمعت عينا نيرو تنومانها مغناطيسياً.. لا بد أنه احتسب كم يستغرقه إقفال حزام المقعد والحصول على أكبر تأثير لجاذبيته.. ولا شك أن ألف امرأة جلسن جامدات هكذا.. وتساءلت كم منهن استفدن من قربه هكذا.

تحرك مبتعداً، وغضبت من نفسها لإحساسها بالأسف.. وقالت بعصبية:

ـ نيرو.. يجب أن تدعني.. أووه..!

ارتمت إلى الخلف لقوة انطلاق السيارة.. إنها جاكوار من آخر طراز. يا للسماء.. أرسل الريح شعرها يلوح إلى الخلف وكأنه نهر أسود متموج واكتشفت أن وجهها ممتلىء ابتسامات.

صاحت في الريح:

ـ جاي لن يسامحك أبداً.

انضم نيرو إلى زحام السير المسائي، يبدو وكأنه يقود بغريزته، يتمتع بالتحدي، وسألها ساخراً:

ـ بدقة أكثر.. هل سيسامحك أنت؟

قالت متكبرة:

ـ لا شيء هناك ليسامحني عليه.. أي إنسان يستطيع أن يرى أنني أجبرت على الذهاب معك.

توقف فجأة، فصاحت متوترة:

ـ لا يمكنك الوقوف هنا!

ـ المكان آمن تماماً. أتظنين حقاً أنك كنت مجبرة على المجيء معي؟

ـ أنت تعرف هذا!

ـ أخرجي إذن.. هيا، أسرعي قبل أن تُحجز السيارة. إنها ليست لي، اقفزي منها وعودي إلى جاي. أعتقد أنه موقوف وسط النهر على يد البوليس النهري ومشغول بتفسير كيفية اختطاف المركب.

مطت شفتيها غاضبة، وبكراهية داخلية ظاهرة فتحت باب السيارة وترجلت تدرك فجأة أنها حافية القدمين.. لكن لا يهم. كيف ستعود إلى المركب.. إنها لا تدري، واستدارت تسير مبتعدة.

ـ ألا تريدين معرفة مفتاح اللغز؟

توقفت محتارة.. ما الذي يعنيه بمفتاح اللغز؟ أتراهما يسعيان إلى مسابقة لاكتشاف كنز؟ وخطرت لها فكرة.. لا بد أنه رتب كل شيء، ووضع الأعلام والبالونات على المرسى الذي قفزا إليه.

وصاح بها:

ـ اصعدي . . وإلا سيذوب .

عادت إلى السيارة تسأل : يذوب؟

ـ ما الذي سيذوب يارا، عداك وأنت بين ذراعي الحبيب؟

تجاهلت سخريته لفكرة خطرت لها :

ـ الشوكولا قرب النار .

ـ ضعيها فوق الطعام .

ـ آيس كريم . . آيس كريم بالكاساتا .

نظر إلى ساعته :

ـ صحيح . . نكاد نصل .

ـ خداع مبتذل .

ـ أوه . . جيد .

أوقف السيارة قرب جدار مرتفع وقفز منها، ثم فتح باباً صغيراً في الجدار . عاد إلى السيارة ليحمل يارا . استندت إحدى يديها بارتياح على صدره، والأخرى على مقربة من عنقه الدافىء الأسمر . ليتها تعرف ما ينوي فعله! إنها مرتبكة .

سألت بحدة :

ـ هل كنت ستحملني لو كنت سيدة عجوز؟

ـ لو كنت سيدة عجوز، لما خلعت حذاءك وأسرعت لتنضمي إليّ . . وبهذا لن يكون هناك ضرورة لإنقاذ قدميك من أرصفة لندن القذرة .

ردت ببرود :

ـ إذا كان هذا هو السبب الوحيد لحملي . . بإمكانك منع يدك من مداعبة ظهري .

اتسعت عيناه بدهشة .

ـ حقاً! آسف إنها العادة .

أنزلها فوق ممر حجري، وكانا في حديقة إيطالية الطراز هادئة، شبه غارقة في الظلام، مليئة بالتماثيل، وفجوات شاسعة تحوي تماثيل أباطرة

تيجانهم رخامية بيضاء .

وقال آمراً :

ـ فتشي عن الآيس كريم .

ضحكت قائلة :

ـ لديك إحساس خاص للدعابات .

ـ وأنت كذلك .

بدا هذا الكلام حميماً جداً بينهما، وأخذت يارا تشمشم بطريقة مضحكة وانطلقت تفتش .

كانت الزهور في الحديقة تطلق عطرها في الأرجاء وهي تمر بها تحرك أحاسيسها الدفينة . سارت عبر الممرات، قدماها تدوسان على العشب النامي بين حجارة الممرات، ونيرو خلفها .

في الحديقة، كان هناك بركة داخلها دائرة صغيرة يرتفع في وسطها نافورة منحوتة من الحجر، فوقها طبق فضي ضخم .

استدار وجه يارا المتهلل إلى نيرو وهمست : لقد وجدته .

الأمر سخيف، لكنها أحبته مهما كان يدبّر لها .

ـ وأنا كذلك وجدته .

ـ أتعني أن هذا هو آخر مفاتيح اللغز؟

ـ لا . . فهذا على ما أعتقد هو البداية، اذهبي وخذيه .

ـ كم عمق البركة؟

ـ اعرفي بنفسك .

استند إلى تمثال لأبولو وطوى ذراعيه، وراح يتأملها بإمعان .

بلعت يارا ريقها بصعوبة ووضعت قدماً مترددة في الماء، كانت دافئة إثر حرارة النهار، وغاصت بقدمها أكثر، وعندما لامست أصابعها القعر شعرت بالماء تصل إلى أعلى من ركبتيها . . ودخلت بقدميها الاثنتين تخطو بجرأة نحو الجزيرة الصغيرة . . لكن الطبق الفضي كان أبعد من منالها .

وسمعته يشجعها بلطف :

ـ يارا، هيا أكملي ولا تترددي.

توقفت مترددة وأحست بشيء من الإحراج، ولكنها كانت مصممة على تسلق تلك النافورة المستعصية مهما كان الثمن. إن ظهوره في حياتها منحها نشاطاً جديداً وأحست بالتحرر من كل القيود.

وضعت قدمها على أول رأس حجري لكيوبيد يخرج منه الماء، ومدت يدها تبحث عما تتمسك به.

قال: متسلقة رائعة.

نظرت إليه ساخرة وقالت بهدوء:

ـ هذه قصة حياتي.. أنا أتسلق دائماً إلى القمة والرجال الأقل شأناً يتفرجون.

ـ القمة تبدو بشكل أفضل من الأسفل.. وقد تصابين بخيبة أمل حين تصلين إليها.. ثم لقد كنت هناك قبلك.

ـ لكنك لا تملك القدرة على البقاء.

بدأ نيرو يهمهم لحناً، ويارا تتحرك بسهولة متزامنة مع تصاعد الإيقاع، ثم أخذت الطبق وجلست على القمة مع تصاعد صوت نيرو الضاحك منهياً اللحن.

حملت الصينية عبر الماء بنجاح بالرغم من ضحكها، وساعدها نيرو لتخرج وقادها إلى أيكة أشجار.. كانت هناك طاولة مستديرة محضرة.. وأضاء بضع شمعات حولها ليجعل الطبق الفضي يلمع وأكواب العصير والمرطبات تتوهج في ضوء الشموع.

ـ قفي جامدة.

ركع أمامها بحركة مسرحية وأخذ يجفف لها قدميها.. وعضت يارا على شفتيها.. كانت يدها ترتاح على كتفه لتدعم نفسها وشردت تنظر إلى ظهره العريض عاجزة. هل كانت تتخيل أم أنه فعلاً يطيل الوقت على غير عادة فيما يفعل؟

قال بصوت أجش بعد أن انتهى وهو يرفع نظره إليها:

ـ سنأكل الآيس كريم.. نصفه لك ونصفه لي.

وقف واتجه إلى مقعده تحت شجرة ورد عطرة، وقالت بخفة مفتعلة وهي تنزلق في مقعدها إلى جانبه:

ـ كنت معتاداً أن تعطيني حصتك.

ـ أنا لا أعطي شيئاً الآن.

نظرت إليه محتارة، هل يتعمد إزعاجها بأن يكون غامضاً.. أم أنه فعلاً متكتم؟ وتنهدت:

ـ أنتم الصقليون منفتحون كسرداب مصرف!

قسمت الآيس كريم بحدة، لكن السكين صدمت شيئاً صلباً في أسفلها. فهمست:

ـ أوه.. نيرو؟

وكانت حلية فضية صغيرة كتعويذة على شكل توأم.

ارتجف قلبها بعجز وهي تفكر بريكي.. الخصام معه ترك في داخلها فراغاً كبيراً، وكأنما جزء منها لم يعد موجوداً، أن يكون للمرء أخ توأم يعني أنهما ليسا شخصين منفصلين بل واحد مقسوم.

خلال طفولتهما، ابتعد ريكي عنها متأثراً بالتصرف الشاذ للمتمرد نيرو.. ولسبب ما كان نيرو يكن كراهية لأبيها.

كان هناك خصام منذ البداية، وحدها أمها كانت قادرة على التدخل وإيقاف السخرية الباردة المندفعة للشاب نيرو، وتهدئة مارتن غاريتي السريع الغضب.. كان يارا وريكي يراقبان ما يجري بعيون متسعة حين تحتدم المعارك.. مذعورين من تساؤلات نيرو حول أي شيء يفعله والدهما.. أو حين يرفض الولد العنيد أية محاولة لإرضائه.

مع ذلك، وخلال كل الشجارات، كان نيرو دائم الحذر وكأنه يكبت غضباً داخلياً، ويختار كلماته بدقة.. كان يجرح والدها، وبدوره كان والدها يشتم نيرو، ويتفنن في إيجاد طرق لانتقاده أمام الناس.

لقد رأت نيرو دائماً بابتسامة حقودة دون أن يُظهر ولو برقة جفن، أن

الانتقاد يزعجه. ومع تلك الابتسامة الحقودة كان يطلق دائماً ملاحظة برية تحرج والدها، أو تكشفه بطريقة ما وتأتي بشهقة صدمة من الجميع.

كانت تكره واقع أن نيرو كان دائماً يزعج صفاء العائلة.. وحاولت أن تقنع نفسها أن الضرب الذي كان يتلقاه من والدها كان يستحقه. وكان عليها دائماً أن تقف إلى جانب أبيها الذي يحبها، ويقدم لها الهدايا، ويهتم بها.. لكن نيرو حصل على انتقامه فسمم أفكار ريكي ضدّ والده.

بعد عدة محاولات فاشلة، تمكن ريكي من الهرب والانضمام إلى نيرو، في سن التاسعة عشرة، لكن ليس قبل أن يقول لوالده رأيه فيه بالضبط.. صدمت يارا وحزنت لأن أخاها كان جافاً وقاسياً هكذا، رغم أنه أعطاهم الحياة المريحة.. واتهامات ريكي الفظيعة لوالدهما التي غذاها نيرو بأكاذيب وهجر ريكي لها مزقت روابط التوأمين.

لكن الروابط كانت لا تزال موجودة، رغم تمزقها.. فالعلاقة بين التوأم تختلف عن أية علاقة أخرى.. إنها بحاجة إلى ريكي كي تعود مكتملة.. لكن الأمر متروك له للصلح معها ومع والده فهو الذي تسبب بالصدع.. وليس نيرو.. ومن المزعج أن يأخذ نيرو دائماً على عاتقه حل مشاكل الناس.. ولأسباب خاصة في العادة. ونظرت إليه بعينين باردتين، تعطيه صورة التوأم الفضي الصغير الواقفين بوضعية جميلة معاً.. وقالت ساخرة:

ـ هذه إيماءة خرقاء تعوزها الكياسة.. يجب أن أعطيك دروساً في الخداع.. لقد قلت إنك لن تحاول إثارة موضوع ريكي.. أوه نيرو!.. أنت لا تطاق!

لم يكن يصغي إلى ما تقول، بل كان يدس الزهور في شعرها ونظرة تركيز على وجهه. ثم قال بصوت لطيف، يلتقط زهرة حمراء:

ـ مفتاح اللغز رقم خمسة.

تجعد جبين يارا مقطباً تحاول حل اللغز المستمر في مراوغتها.. كانت يداه مشغولتان في شعرها، وظهرت في يده ساق زهرة حمراء كبيرة، تقول لها بصراحة إنها لا يمكن أن تكون قد نبتت في انكلترا.. وأبقت أنفاسها منتظمة

قدر المستطاع.. ثم قالت ببرود:

ـ لقد فهمت الصورة.. أنت تحاول أن تفهمني أنني سأحب الحياة مع ريكي في صقلية، وأنها مليئة ببائعي الآيس كريم، والزهور البرّية و.. حسناً، لا أعرف ماذا تعني بالبالونات.. لكنك تضيع وقتك.

ـ مخطئة.. فكري مرة أخرى.. فتشي في ذاكرتك.

لدهشتها بدأت الذكريات تغمرها، غامضة مليئة بالرعب، وظهر هذا على وجهها.. ولم تكن راغبة في أن تبدو ضعيفة أمام رجل لا رحمة في قلبه مثل نيرو. بدلاً من هذا ركزت على مفاتيح الألغاز المحيرة مصممة أن تثبت أنها قادرة على مجاراة تفكيره الملتوي وأنها ذكية مثله.

ـ ربما حفلة؟ هذا هو الشيء الوحيد الذي أذكره..

مرة أخرى تلاشى صوتها، لكنها لم تكن متوترة بل مصدومة بمشاعرها.

همست:

ـ اللعنة عليك نيرو فوغارتي! اللعنة عليك لإيقاظ كل شيء أردت أن أنساه!

كانت الذكرى لها ولريكي، تمسك ببلاهة بالوناً، تراقب نيرو وهو يترك المنزل في عيد ميلادهما الحادي عشر. يا لدقة توقيت نيرو! إنه يجتذب، بشكل درامي، آخر ذرة من حدة الذكريات وإثارة الحنان! كان يوماً من المفترض أن يكون مفرحاً.. لكن أعياد الميلاد بعده أصبحت أياماً ضبابية ومن الذكريات التعيسة.

وعرفت لحظتها ما يعني نيرو لها.. وأنها كانت تتكدر حين يتشاجر والدها معه لأنها كانت تحبهما معاً، وأن كل مقاومتها لإبقاء والدها الأرفع مقاماً في قلبها، كان لأنها تتحاشى أن تحب نيرو أكثر منه.. وهذا بالتأكيد خطأ.

حتى الآن، كانت لا تزال تتألم لتذكرها الدموع والتوسل، خاصة من ريكي، كان نيرو محور حياتهما. السبع سنوات التي يكبرهما وسحره الأجنبي كانا يعطيان بريقاً غريباً لجموحه.

لكن شيء آخر جعل خسارته لا تحتمل.. في أي وقت يرحل فيه، كانت تحس بفراغ لا اسم له لم تتمكن أبداً من تحديده.. إحساس غير منطقي لكنه يحرك ما في أعماقها ويجعلها دائماً ترغب في البكاء.. ووجدت إحساسها ينجذب إليه دون مقاومة، تستند إلى صدره ليستريح رأسها هناك كما كانت تفعل وهي طفلة.. ومن ثم مراهقة.

امتدت يده تمسح شعرها بخفة قائلاً:

- إذن.. لا زال هناك شعلة إنسانية داخلك.

أحست أنها تلقت إهانة لتعليقه القاسي فأبعدت نفسها عنه، لكنه أمسك بمعصمها بقوة وارتفعت نظرتها لترى عيناه تقدحان شرراً.

قال بغضب:

- واجهي الأمر.. تذكري.. تذكري كيف كانت الأمور.. الخوف.. الصراخ.. الغبار.. الضغط على رئتيك.. الألم في رأسك.

سألت مذهولة: عم تتكلم؟

هز رأسه:

- يجب أن تفعلي هذا يارا!

أحست بأنها لم تستطع أن تتنفس، نظرتها المذعورة مثبتة في عينيه الملتهبتين الثاقبتين.

وتمتم:

- أنت تتذكرين شيئاً.. فكري يارا؟

تأوهت، وتراجع رأسها إلى الوراء كي لا تسحرها عيناه: لا..

ثم ارتجفت عندما أحست بيديه تضمانها.. تمنعانها من التنفس والكلام.. بينما استجابتها الداخلية الحادة تشلها عن الحركة. ووجدت نفسها ترتجف.

في مكان بعيد من أعماق وعيها، سمعت أصواتاً لكروان ليلي، وتأوهت.. للطبيعة ميل غريب للتوافق مع نيرو متى أراد شيئاً.

انفتحت عينا يارا بقوة مع دفعة سريعة أبعدتها عنه، وسألت بخشونة

ووجهها كحجر بارد:

- إلى ماذا تسعى؟ إلى أن أضربك بركبتي على بطنك؟

أجفل لفظاظتها كما أرادت تماماً.. تحت كل سخريته الحادة، كان لديه تقدير مثالي للنساء! ولا عجب أنه لم يتزوج، فهو لن يجد الزوجة الكاملة بين النساء المتشوقات اللواتي يلاحقنه.

قال بلهجة خشنة:

- ظننت نفسي أوضحت تماماً ما أسعى إليه.

أمسكت يده ورفعت الأصابع عن خصرها واحداً واحداً وبنفور ظاهر.

- أوه، الآن فهمت.. هذا مفتاح آخر للغز.

- بإمكانك قول هذا.

تمطى بكسل، وكأن رفضها لغزله لا يهمه.. فاشتد ضغطها على فمها وقالت بهدوء خادع:

- وأنا كذلك لدي مفتاح للغز.

بدا الاهتمام على نيرو.

أمسكت زجاجة المرطبات تصبها فوق رأسه.. وبدلاً من تجنبها أو إمساك يدها، جلس ينظر إليها برضى، وفكرت: إنه ينقذ ماء وجهه ولن يعترف أنها فاجأته بما تفعل.

- إذا لم يكن هذا مفتاح لغز يكفي ليجعلك تفهم كيف أشعر نحوك، فلدي فكرة أفضل في استخدام عصير التوت البرّي الأحمر كذلك.

بضحكة لتهديدها، مرر نيرو لسانه حول شفتيه، يتذوق طعم العصير الذي انصب على وجهه والذي جعل خديه يبرزان، وشعره الأسود يلتصق بخصل متجعدة على جبهته.

استيقظت في ذاكرة يارا صورة حية له وهو يبرز من البحر منذ عشر سنوات وكأنه تمثال آلهة إغريقية، في الثالثة والعشرين، مليء بالعضلات، شديد السمرة.. وكان قد عاد في أول زيارة له من صقلية منذ غادر قبل خمس سنوات.. هي، وصديقاتها، لم يكن قد شاهدن بمثل جماله طوال سنواتهن

الستة عشرة.. وكانت تلك التجربة الأولى والوحيدة لها في مجال الأحاسيس تجاه الرجل، ومعرفتها أنه صعب المنال.

يومها بقيت جالسة على منشفتها. أما هو فكان وسيماً جداً، واثقاً من نفسه، وقررت أن تتظاهر بالبرود.. لكن صديقاتها تسارعن إليه. وعرفت من الطريقة التي نظر فيها إليهن بتحفظ وسأم أنهن عاديات بالنسبة إليه واستلقت تاركة حرارة الشمس تغمر جسمها.. ثم أحست بقشعريرة وعرفت أنه اقترب منها..

شعرت برذاذ ماء يلامس وجهها، ففتحت عينيها لترى وجهه الأسمر القاتم ينحني فوقها، وسألها بصوت ناعم إذا كانت ترغب في الآيس كريم.

ابتسمت يارا.. بالنسبة إليه كانت مجرد طفلة تهوى الحلوى.. تذكرت البؤس الذي أحست به وردها عليه:

ـ لا.. بل أفضلك أنت.

صدمه هذا، فصمت.. وتوقف مزاحه.

بدا أنه الآن يتعمد المزاح المزعج مرة أخرى. فنظرت إليه نظرة مغرضة تتوق في سرها أن تمسح العصير المتبقي على وجهه.. لكن يجب أن تحافظ على وقارها، لا شك أن لديه دافعاً خفياً إذا كان يهتم بها هكذا الآن.. ولا بد أنه دافع هام.. فهل لهذا علاقة بشركة البناء؟ أيعرف شيئاً تجهله حول ميول السوق؟ ربما قد تستفيد في أن تجاريه في لعبته. وظهر على وجهها شيء من ترددها.. قد يؤلمها حين يكشف لها عن حقيقة دوافعه.. لكنها تحتاج لأن تعرف!

قال متمتماً:

ـ لطالما كان لديك فضول لا يشبع يارا.. ألا زلت تشعرين بالإثارة؟ حاضرة لمفتاح اللغز التالي؟

قالت بحدة لاذعة:

ـ بدأ كل شيء يضجرني.. ألا يمكنك قول ما تريد ببساطة وننتهي من هذا؟

اقترب منها مجدداً:

ـ إذا كنت مصرة.. أنا أريدك.

سيكون نصره مكتملاً لو حصل عليها.. خاصة لو عرف أنها لم تعرف أحداً قبله.

ـ لا.. أنت لا تريدني.

تمتم بغموض:

ـ أستطيع أن أثبت لك..

قالت بحلاوة:

ـ نيرو.. عزيزي.. لأنك تقول بالضبط أن هذا ما تريد، أعرف أنه وسيلة لغاية.

ـ أنت تسيئين الحكم عليّ..

ـ لا.. أنا لا أسيء الحكم عليك.. أنت أكثر خبثاً من أن تقول بصراحة ما تريده فعلاً.. بالنسبة إليك، جزء من لذة الحياة يكمن في خداع الآخرين.. لماذا لا تتوقف عن الثرثرة الفارغة وتكون صادقاً لمرة واحدة في حياتك؟

ـ الحصول عليك سيكون همي الأساسي.

ـ وسأقاومه.

تنهد وقال بحزن:

ـ أنت ترين ما في نفسي دائماً.. أليس كذلك؟

ارتفع صدرها بغضب لاعترافه بما تشك فيه وأن له دافعاً خفياً في تظاهره بإغوائها.. وهذا شيء كريه.. قالت:

ـ أنت كلاعب شطرنج محترف.. تدفع الناس وكأنهم حجارة بين يديك.. تفعل هذا بالجميع وهو أمر مهين.

وقفت وتابعت قولها:

ـ أعدني إلى منزلي.. فأنا لا أريد رؤيتك مرة أخرى.

ـ لماذا؟ نحن نقضي معاً وقتاً مسلياً.. أليس كذلك؟

عضت شفتها . . كم أنه قليل العمق .

ـ لقد تذكرت كما أردت مني . . تذكرت كم كنت قاسياً بدون رحمة ، وكيف كنت تنطلق لتحصل على ما تريد بالخداع والمداهنة والفتنة الزائفة . أذكر كيف كسرت كل القواعد للانتقام ممن أساء إليك بطريقة أو أخرى . . ولا أريد أن يكون لك صلة بي . . لقد تبرّأ منك والدي وكذلك أنا .

كان نيرو وقوراً في الظاهر كما هو أبداً . ووقف معها يتأمل وجهها الغاضب وعينيها المحمرتين . . في وقفته هدوء كئيب خطير ، وحضرت يارا نفسها للبدء في رمي الآنية الخزفية في وجهه إذا رفض أن يتركها ترحل .

لم تستطع يوماً أن تتدبر أمرها حين يغضب . . في أعماق هذا البحر الهادىء غضب بركاني لطالما أرعبهم جميعاً ، أصدقاء وأعداء على حد سواء ، والدها ، هي ، وريكي . . وحفنة من مدراء المدارس الذين قادهم حظهم السيء للوقوف في وجه نيرو الغاضب . . رفضه السماح لأحد بدخول حياته جعله مثيراً دائماً للإعجاب . . وبدا أنه يستخدم هذه الجاذبية حتى في تلك الأيام المبكرة ليحصل على انتقامه من الجنس البشري ، فما هو الذي كان يدفعه إلى كل هذا؟

سألت بجرأة :

ـ لماذا أنت ناكر لجميل أبي هكذا؟ لقد آواك ودعاك ابنه . .

ـ لم يكن لي رغبة أن أكون ابن غشاش كاذب .

ـ كيف تجرؤ على الكلام هكذا عن والدي؟ لم يكن يتذمر أبداً حين يخبره معلموك أنهم ضربوك أكثر مما ضربوا أحداً في حياتهم . . لم يقل أي شيء أبداً عن تقارير مدرستك السيئة .

تمتم بخشونة باردة :

ـ لقد ذاب الآيس كريم .

نظرت إلى الأسفل وصاحت :

ـ أنت لا تنهي حواراً أبداً .

أمسكت طبق الآيس كريم ورمته له ، فالتقطه بنجاح وتقدم إليها ،

وكانت أذكى من أن تقف في وجهه خاصة في مزاجه الحالي . . وركضت .

كان نيرو أسرع منها فأمسك يدها وشدها إليه فأوقعها فوق كرسي خشبي . . وصاحت خوفاً من غضبه المجنون : لا . . نيرو !

تلاشى غضبه قليلاً ، ولو أنه تركها مقطوعة الأنفاس شاهقة . . ولأول مرة عرفت ما الذي تشعر به النساء وهن بين ذراعيه .

إنه يفعل كل هذا متعمداً ، وهي تدفعه بدون جدوى في محاولة يائسة لأن تمنعه من حملها .

همس في أذنها :

ـ يارا . . أنت متمردة جميلة .

اشتعلت شرارة في داخلها ، وتمتمت :

ـ دعني أذهب . . أيها المتوحش .

لكنه شدها أكثر إليه متأملاً وجهها المرفوع أمامه ، يسلبها كل إرادتها . . كل مقاومتها . . دافعاً بمشاعرها إلى أتون من المشاعر الجامحة .

شعرت بألم لا يطاق . لا . . لا . . لن تكون سهلة ، لن تستسلم كزهرة ضعيفة . هذه هي أساليبه الماكرة لإيقاع فريسته متى شاء هو ، تعرف في قرارة نفسها بأنها طريدته المقبلة . . بأنها هدفه القريب ، وعرفت هذا بصدمة مفاجئة . . لكن كيف يمكنها أن تستجيب؟ نيرو يتلاعب بالنساء . . إنهن مجرد تسلية عابرة له لا شيء أكثر . . ومشاعرها لن تحتمل الهجر أبداً .

قالت واليأس يعطي صوتها حداً متوحشاً :

ـ هل تسمح أن تبعد يديك الثقيلتين عني؟

ـ ماذا؟

رفضته بحدة :

ـ أوه . . توقف عن استغلالي للحصول على ما تريد ، أعدني إلى منزلي من فضلك .

أحنى رأسه وأخفض جفنيه كي لا ترى تعبير وجهه :

ـ أتعنين أنك لا تريدينني؟

حاولت يارا كبت غضبها.. السخرية هي أفضل طريقة، فهو لا يحس بالجرح أبداً.

قالت ببرود: أريدك؟

ضحكت ساخرة وتابعت حديثها:

ـ أوه.. أيها العزيز! هل تعامل جميع النساء هكذا؟ لا عجب أن يكون لديك هذا العدد من المواقف الليلية.. يا إلهي نيرو! أنا لا أذكر متى كنت آخر مرة مع رجل.

هذا على الأقل صحيح، وكان له التأثير المطلوب. قفز نيرو واقفاً، وتمكنت من تحريك ساقيها بأناقة عن طرف كرسي الحديقة الخشبي، ووقفت بدورها. تهاوت قليلاً فحاول مساعدتها، لكنها نظرت إليه بلا مبالاة متعمدة ومشت بضعة خطوات، وحين التفتت إليه صدمت ببرودة تعابير وجهه.. ولاحظت أنه لا يقوى على السيطرة على أعصابه.

سألها بخشونة:

ـ كم عدد الرجال في حياتك يارا؟

أخفت دهشتها من هذا السؤال وواصلت كلامها:

ـ أوتظن أنني أتابع العدّ؟

تنفس بحدة:

ـ في يوم ما، سنكون معاً.. وتجتمع خبراتنا.. ستكون ليلة هائلة.

ـ لا تهددني بالقصص المرعبة.. من العار أنك استطعت فتنتي بالمرسى المزين، والتفتيش عن الآيس كريم، والزهور الجميلة الترتيب.. لكنني فقدت كل اهتمام بوجودنا معاً.. ولا شك أنها تجربة جديدة لك أن تحس أنك ثانوي الأهمية بالنسبة لحفلة بالونات.

التوى فم نيرو، هل أشعلت نار غضبه أو أنها سلته بما يكفي؟ لم تكن واثقة مما سيحدث.. كان غامضاً ولا مجال لمعرفة سره. وانتظرت يارا.. عيناها منخفضتان بخنوع.. كانت في وقفة ملائمة، مستعدة للركض هرباً نحو البوابة.

لكنه مد يده إليها بدون أية تعابير قائلاً: إلى المنزل.

جعلته نظرة الاحتقار منها يسحب يده التي مدها دلالة قبوله الأمر الواقع.. وأوصلها إلى منزلها الموحش، وأدخلها إليه وأضاء لها مصباح الردهة ثم استدار على عقبيه واختفى.

لو أرضت غروره ولم تغضبه لكان هذا أخف عليها.. فهو قد علمها أن تتشوق دائماً لحضوره بقربها.. وجعلها تفكر بطفولتهما، وباليوم الذي حطم فيه قلبها.

***

٣ ـ عاد ليقول وداعاً

كان ذلك في الصيف الذي أصبحت فيه في السادسة عشرة، وفي اليوم التالي لما حدث على الشاطىء. منذ تلك اللحظة، وكلما اقترب منها، كان قلبها ينطلق خافقاً بسرعة غير منتظمة.

كانت وريكي وصديقاتها في «مالوركا» بضيافة والدها الذي طار بهم جميعاً إلى فيلا كبيرة يملكها شمالي الجزيرة. . وكان هذا بمثابة اعتذار لعدم تواجده معها في أي من عطلات تلك السنة. بعد موت أمها المفعدة، كانت تبقى هي وريكي دائماً لوحدهما خلال العطلات.

ذلك الصيف بالذات، كل ما حصلت عليه كان رسالة هاتفية من والدها يقول إنه مرتبط بصفقة تجارية. أخفت إحساسها بالإهمال وانطلقت تسلي صديقاتها بقدر ما تستطيع من مرح.

وصول نيرو بدون علم مسبق أذهلها. فهو على أي حال خرج غاضباً من المنزل في لندن كبركان عاصف منذ خمس سنوات، ولم يره أحد أو يسمع عنه منذ ذلك الوقت. . ولا كلمة واحدة. وكانت لا تزال تتذكر التأثير العاطفي لرحيله والليالي الحارة بدون نوم وكم بكت فيها مع ريكي حتى الإنهاك.

الآن عاد نيرو. . مختلفاً، واثقاً من نفسه، وجوده يولد شرراً خطيراً مثيراً جعلها تتألم. . وأكد لها أنه أصبح خبيراً بالنساء. لكنه تجاهلها ودخل في حوار عميق مباشر مع ريكي يفصله عن أصدقائه. . ورأت يارا أن سحره القديم لا زال موجوداً وأن ريكي قد يرضى بالموت لأجله وهو سعيد.

اعتقدت أن عليها أن تقول لأبيها إن نيرو موجود. . وإن ريكي في

خطر. . لثلاث مرات حاول الهرب لينضم إلى بطله. لكنها ترددت، ثم قررت الانتظار. . فقد أرادت أن يكون نيرو موجوداً في عيد ميلادها السادس عشر ليرى أنها لم تعد طفلة. . حين سينظر إليها في فستانها الجديد الأنيق، سيفكر بها كامرأة أخيراً ويلاحظ وجودها.

لم يخطر ببالها التفكير بما قد يحدث فيما بعد. . كل ما كانت تريده هو اهتمامه وإعجابه. فيارا كانت قد تعلمت أن تعيش للحظتها وأن لا تبني آمالاً للمستقبل. .

كانت قد ركضت إلى الطابق الأعلى لتجرب فستانها، والتدرب على الحركة، الوقفة، مع الموسيقى المرتفعة التي تصم الآذان. . مال رأسها إلى جانب واحد وتأملت صورتها المنعكسة في المرآة. . فجأة توقفت الموسيقى. . وجاء صوت نيرو ساخراً وهي تستدير لترى من هناك:

ـ سأذبح كل الإسبان المحليين!

رمته عيناها الساخطتان بنصال حادة. يبدو أن صورتها لم تؤثر فيه أبداً. . وردت ببرود:

ـ إنهم مذبوحون سلفاً.

جلس على السرير:

ـ لن يستغرق هذا طويلاً.

أدركت يارا أنه لن يكون مرتاحاً هكذا لو أنه ينظر إليها كامرأة. . إنه يتصرف وكأنها خالته العانس يركبان الباص معاً. .

تابع نيرو ببرود متعمد:

ـ كل ما يحتاجون إليه هو أن يلمحوا قليلاً من اللحم، أو نظرة عبث. . هل يعرف والدك أنك ترتدين هذا، يارا؟

وعبس. .

ـ ليس بعد. . إذا جاء إلى الحفلة فسيرى بنفسه.

قال ساخراً:

ـ ليس هناك أي مجال لمجيئه، فعائلته تأتي في المقام الثاني بالنسبة إلى

عمله . . إنه مشغول الآن في إيقاع زبون ساذج في باريس . . فهو لا يتخلى أبداً عن فرصة الاحتيال على شخص ما .

ثار غضبها :

ـ أخرج من هنا . . أنت تحت سقف بيته . إذا لم يكن لديك شيء لائق تقوله عنه فلا يجب أن تكون في ضيافته .

رد متشدقاً :

ـ لم يكن بالإمكان تجنب هذه الضيافة إلا إذا جئت بسندويشاتي معي . . ولقد بقيت أقصر وقت ممكن . . جئت فقط لأقول وداعاً ولأحذرك . .

ـ تودعني؟ لقد وصلت لتوك!

ـ جئت لأكلم ريكي . . وليس لأي سبب آخر .

قالت خائبة الأمل :

ـ أوه . . إذن لماذا تزعج نفسك بالكلام معي؟

ـ لأنني أريدك أن تتركي ريكي وشأنه . . أنت تقيدينه وهو يحتاج إلى فسحته الخاصة . . لطالما كنت غيورة يارا، تكرهين أن يفعل شيئاً لوحده أو معي . . لا يمكنه أن يبقى يلحق بتنورتك إلى الأبد .

ردت متصلبة :

ـ إنه في المدرسة الداخلية معظم الوقت . . وهذا بالكاد . .

قاطعها قائلاً :

ـ أنتما معاً أكثر مما هو لوحده وتسيطرين عليه، مع ذلك تستخدمين أنوثتك لتحققي مآربك . . تكتبين له رسائل مطولة حميمة، وتتوقعين منه أن يفضي إليك بسرّه . . أنت تضغطين عليه .

شهقت :

ـ وهل قال لك كل هذا؟

ريكي الوحيد الذي تستطيع أن تكون منفتحة معه . . فهل ستبقى بدون أحد؟

ـ ريكي يقول لي كل شيء .

صاحت بغضب ظاهر :

ـ ليس من حقه هذا .

ـ لا . . لكنه مضطر فصبره يكاد ينفد . . ويحتاج إلى من يكلمه، شخص يثق به .

رباطها الفريد مع أخيها بدأ يتفكك وأخافها هذا؛ وكررت بصوت مرتجف :

ـ لديه أنا! لديه أنا!

ـ هو يعرف أنك ستتألمين لو قال لك إنه يجدك متعلقة به أكثر من اللازم .

ـ ولا يبدو أنك تهتم .

ـ ألا أهتم؟ أنا أعرف لماذا تتعلقين به . أريدك أن تفتشي في ذاكرتك وتتذكري الرعب الذي أحسست به وأنت طفلة . . وأن تفهمي مشاعرك . . ربما ساعتها ستتوقفين عن التصرف كمحنكة ناضجة قاسية، وهذا ما لست عليه . لقد تصرف والدك معنا جميعاً بشكل سيء . . لكن أنت بشكل خاص . .

نظرت إليه نظرة إجرام مقاطعة :

ـ أوه! أخرج! قبل أن أستدعي الخدم لأرميك خارجاً . . أنت تدير الاسطوانة القديمة ذاتها ولقد أصبحت مملة .

بدا عليه وكأنه هُزم . . وهذا ما أجفلها :

ـ لكن ما تريدين .

سألته : هل ستعود إلى صقلية؟

ـ في نهاية المطاف .

ـ بعد القيام ببضع أعمال هنا؟ يقول والدي إنك متورط في عدة ألاعيب غير قانونية، وإنك لست سوى رجل عصابات .

ـ حقاً؟

وقفت تحس بالحرمان، وتبحث في رأسها عن شيء تؤلم به نيرو أكثر . . لقد وجدت شرخاً صغيراً في دروعه . . وربما ستجد آخر، وتعرف عبرهما من

هو نيرو فوغارتي.. حقاً.

ـ قال لي أبي..

وصمتت، أسنانها تعض شفتها السفلى وهي تدرك أن ما ستقوله من الأفضل أن لا يقال.

ـ ماذا قال لك؟

لم يتحرك نيرو من مكانه ولا أشاح بوجهه لكن كان لصوته رنة الفولاذ.

قالت له:

ـ لا شيء.. انس الأمر.

تقدم منها يمسك ذراعيها في قبضتين قاسيتين قائلاً:

ـ لا.. قولي لي.. قولي ماذا قال؟

تمتمت: لن يعجبك ذلك.

ـ ولا أتوقع أن يعجبني.

أبقت عينيها منخفضتين وهي ترد عليه:

ـ قال.. قال إنه نادم على التقاطك من الأزقة، لأن...

صمتت.. وتحول سخطها إلى ألم بشكل غريب، كان قولها هذا يؤلمها بقدر ما يؤلمه.. وظهر حزنها على وجهها.

قال نيرو بصوت غير متأثر وقبضته تشدها بقسوة:

ـ تابعي، هيا ولا تتوقفي.

ـ لأنه كان بالإمكان أن يوفر على نفسه المتاعب لأنك عدت إلى الأزقة التي جئت منها.

تركها نيرو.. فتراجعت خطوات تفرك ذراعيها، ورأت أنه لم يع أنه آلمها، وغرق في تفكيره.. وتلوى قلبها.. لا أحد يمكنه أن يساعده.. فقد أبعد نفسه إلى سجن مغلق خاص.

صاحت:

ـ لا يمكنك لوم أبي! لقد قام بما في وسعه..

ـ لا.. إنه لم يتبناني لرقة في قلبه.. بل كان هذا لمصلحة.. مصلحة

سياسية.

صاحت بولاء لأبيها:

ـ هذا تمادي بالسخرية.

ـ كنت نصف حي.

ومضت عيناه بطريقة مخيفة:

ـ كنت في المستشفى.. بدون أغطية..

ـ مستلقياً على ألواح خشبية خشنة، كلها شظايا والتي..

اختنق صوتها وهو يهز رأسه.. كيف عرفت هذا؟ لكنها أكملت باحتجاج:

ـ لقد كان طيباً ولطيفاً لأنه أخذك من ذلك المكان.

تنهد نيرو:

ـ ترفضين أن تتذكري.. حسن جداً.. لكن تذكري هذا: حين يأتي ريكي إلى صقلية، لن يكون هذا لأنه يتشوق للانضمام إلي بل لأنه يريد ترك والده وتركك.. واسألي نفسك عن السبب.

ركضت نحوه وصفقت بيدها الباب وهو يفتحه، فأغلقته وسدت عليه الطريق بجسمها.

صاحت برعب:

ـ ريكي سيرحل؟ سيذهب إلى صقلية؟

ـ حين يصبح كبيراً بما يكفي.. لقد تمكنت من إقناعه أن ينتظر لسنتين.. وهذا وقت يكفي لكما معاً لتتغيرا، وقد تتمكنين من الاحتفاظ به.. لأنه يريد الهرب الآن.. لكنني غيرت رأيه.

تمسكت يارا بطيات صدره والذعر يجري في جسدها كالزئبق يصد أية أحاسيس، وقالت مقاطعة:

ـ لا يمكنه تركي.. إننا توأم! والدي بالكاد يكون هنا هذه الأيام.. ريكي هو كل ما أملك..

قال نيرو بقسوة هادئة:

ـ ليس لك أحد يارا.. لا أحد يملك أحداً.. الحياة مشاركة لا يمكن امتلاكها.. أصغي إلي.

أمسكت بداه كتفيها بحنان وهي تنظر إليه يائسة.. عالمها يتحول إلى جحيم.. أولاً، هجر والدها وتفضيله العمل عليها.. ثم نيرو أخوها بالتبني، وها هو الآن ريكي سوف يهجرها.. لن تتحمل هذا.. لا بد أن يكون لديها أحداً..

توقف نيرو عن الكلام، وأخذ ينظر إلى فستانها.

فجأة أدركت أن سبب عدم حراكه كان تحديقه بها بدون وعي، ثم أشاح بوجهه عنها ويبدو أنه عاد إلى واقع أنه وجدها صغيرة.. وكل ما استطاعت التفكير به هو أن تتمكن من إقناعه بالبقاء. فلو بقي، فسيبقى ريكي، وسيكونون عائلة واحدة سعيدة.. ربما..

اقتربت منه أكثر وهمست بصوت متكسر: نيرو..

قال بصوت أجش:

ـ لا تتكدري حبيبتي.. فلقد كانت لديك حياة هادئة أعرف هذا، لكن عليك الاستفادة أكثر مما عندك.

ـ أوه.. أجل هذا ما أنويه.

أصبح وجهها متقداً أمام نظرته.. وزادت من اقترابها منه، حتى أحست بضربات قلبه المتسارعة.

ـ يارا..

بدا صوته أجشاً.. وعرفت يارا طعم الانتصار. إن لها القدرة في يدها. إنها مختلفة عن صديقاتها، فهن لم يكن قد تعلمن إخفاء مشاعرهن.. ولن يكون لنيرو الرأي الأول في هذا الموقف..

أحست به يتحرك نحوها ممسكاً ذراعيها بخشونة، قال ساخطاً:

ـ لا تفعلي هذا. أنت لا تعرفين أبعاد لعبتك، يارا لا تلعبي بالنار.

قالت بصوت أجش:

ـ أعرف.. أعرف كل شيء، وأعرف ما أفعل.. نيرو!

بدا وكأنه مصاب بسهم في قلبه:

ـ لا يمكن أن تعرفي..

ثم تراجع وبإرادة صلبة دفعها عنه.. وجهه أكثر شراسة مما رأته يوماً في حياتها.

قال ساخراً:

ـ قلت لك.. أنت لا تدركين معنى ما تقومين به. لديك أخلاق أمك!

ثم ابيضّ وجهه، وبدا الذعر في عينيه.. وكأنه قال شيئاً أقسم أن لا يذكره أبداً.

ـ يا إلهي! كيف قلت هذا؟ إنها غلطتك! لقد قادني تصرفك إلى الحماقة!

ـ غلطتي! ماذا تعني نيرو؟ كيف تهين أمي؟

غاصت عيناه بشكل خطير وقال بصوت هادىء:

ـ كنت أحب صوفي غاريتي.. ولهذا لم يخبرني والدك أنها ماتت.. ولم يدعني إلى الجنازة! لقد أرضاه أن أودعها وحدي أمام قبر بارد.. ولن أنسى هذا!

أحست بآلامه.. وتمنت لو أن والدها لم ينتقم منه بمثل هذه القسوة..

ثم تذكرت اتهامه فحبست في وجهه وسألته بازدراء:

ـ إذن ماذا تعني.. أمي كانت مقعدة معظم أيام حياتها! ولا يمكن أن تعني أنها..

تمتم مقاطعاً:

ـ قلت هذا بدافع الغضب.. كنت غاضباً من نفسي وأعتذر.

صاحت يارا:

ـ أو.. لا! لقد تفوهت بالحقيقة.. هناك شيء خاطىء.. وأعرف هذا.. أخبرني ما هو! لا يمكنك تركي هكذا!

على مضض، أدار نيرو لها عينين باردتين حزينتين:

ـ إنه شيء يجب على والدك أن يقوله لك.. وليس أنا.

ـ لأجل السماء! سأكون في السادسة عشرة غداً.. وإذا لم يحضر أبي..

عليك أنت أن تقول لي!

تفرس بها، وجهه بقساوة الغرانيت وكأنه يحسب الإفادة والخسارة فيما تطلب، ثم قال متجهماً:

- لست أرى أي سبب يدعو لأن تبقي في جهل لما تبقى من حياتك.. اجلسي.. وانتظري هنا.

غاب قليلاً ثم عاد بكوبين من القهوة:

- قد تحتاجين إلى هذا.. وبالتأكيد سأحتاجه أنا.

جلس إلى جانبها:

- ريكي يعرف.. وهذا أحد الأسباب التي تدفعه للرحيل.. والدك أنكر عليه حق الابن البكر في آخر مرة هرب فيها، وأعيد إلى المنزل بعد اللحاق به في مطار هيثرو.

أحست يارا ببرودة داخلها وهمست:

- أي حق للابن البكر؟

- مارتن وصوفي غاريتي لم يكونا قادرين على إنجاب الأولاد.. كان قلبها ضعيفاً.. لكنها كانت تتشوق للإنجاب بشغف مهووس.. كل ما أراد أن يفعله هو بناء امبراطورية تجارية بدماء الآخرين.

كانت يارا مصدومة وتمتمت: تابع.

- تبناكما مارتن معاً لأسباب لن أخوض فيها الآن.. وبعد فترة قصيرة تبناني، كنتما في الثالثة من عمركما وكنت أنا في العاشرة.. ونحن من أصل واحد، قرية واحدة، روكا، في صقلية.

استدارت عيناها بجمود.. وشهقت: أنا!! أنا إيطالية؟

قطب نيرو:

- لا.. لا نعتبر أحداً من صقلية إيطالياً، فسيعتبرها إهانة.. على أي حال، أنت نصف صقلية، لهذا أنت وريكي يمكن اعتباركما إنكليزيين، فليس لأحد منكما البشرة الداكنة.

أحست بالصغر فجأة، وتفجرت ثقتها بنفسها ورباطة جأشها كالبالون:

- نحن إذن لسنا من عائلة غاريتي؟

هز رأسه إنكاراً:

- عائلتين مختلفتين.

- واسمينا..

- ريكي اختصار ريكاردو وأنت يجب لفظ اسمك «ياورا».

كان ينظر إليها بحنان ويتفهم لمدى ردة فعلها.. أحست أنها مصدومة خرساء، والدها ليس والدها، أمها ليست أمها.. حتى اسمها ليس اسمها.

- منذ متى وأنت تعرف هذا؟

- طوال حياتي، طبعاً.

- ولم تقل شيئاً؟

- لقد تعلمت منذ كنت صبياً صغيراً أن أكتم السر.

- وأخفى ريكي السرّ عني!

وكان هذا بالنسبة إليها آخر صدمة.

- لقد أمر أن يفعل، مارتن غاريتي قال أن لا داعي لنبش الماضي.. وطلب هذا لأنه يحبك يارا.. لا بسبب الخداع.. هناك نوع من الحاجز في ذاكرتك حول حياتك المبكرة.

- وهل يمكن أن أتذكر شيئاً حدث قبل بلوغي الثالثة؟

- أوه.. ريكي.. ريكي يتذكر.. الكثير من الأشياء..

إنه عالم أسرار، ولقد بقيت هي خارجه.. لماذا لا تستطيع أن تتذكر؟

- قلت.. إنني نصف صقلية؟

نظر إلى وجهها المصدوم بمزيج من الحنان والشفقة.. وضمها بين ذراعيه لحظة خرجت منها أول شهقة بكاء.. وقال متنهداً:

- مسكينة يارا.. في أمسية عيد ميلادك تسمعين هذه الحقيقة المدمرة! أجل، أمك الحقيقية كانت ضالة.. ولم تقل أبداً من هو والدك الحقيقي.. يمكن أن يكون أحد زوار القرية الإنكليز.. وانتهى بها الأمر إلى الزواج من صاحب المخبز في «روكا»، رجل أكبر منها بكثير وطباعه كالصاروخ.. كان

دائماً يتهمها بجنون.

- أتعرف كل هذا؟ تتذكره؟ كنت فقط في العاشرة!

- في صقلية، خاصة في روكا، ابن العاشرة يقارب أن يكون رجلاً.. وكنت أقوم بعمل رجل لسنتين.. أعمل في الحقول من الفجر حتى الغروب.. فالمرء يكبر بسرعة في مجتمع كهذا.

تمتمت:

- أخبرني أشياء عن أمي.

- كانت جميلة، وجهها له حلاوة المادونا وتعمل في المخبز.. وحين لا يكون زوجها يراقبها، كانت تعطي الأولاد البائسين كسرات الخبز ليقضموها.

- وهل أعطتك شيئاً منها؟

اسود وجه نيرو:

- لا.. لقد حرّم علي والدي أن أدخل المخبز.

كم هذا محزن.. والده كان يكره والدتها.. يا لها من سخرية!

- ماذا حصل لها؟ كيف ماتت؟ ووالدك..؟

- أظن أن هذا شيء يجب أن تتذكريه بنفسك، لكن ذاكرتك ضعيفة.. وليس من الجيد أن يصفه شخص آخر لك.. يجب أن تتذكريه بنفسك.. أنا آسف يارا.. والدك بالتبني كان مصراً على أن لا تعرفي.

- بالتبني! أوه.. نيرو! لا أستطيع أن أدعوه هكذا! أنا لا زلت أفكر به كأب حقيقي لي!

- بالطبع.. فلا سبب يدعوك كي لا تنظري إليه هكذا.

- هذا يفسر سبب عدم اكتراثه بي.. ليس هناك روابط دم بيننا.. لما لا يحبني؟

- مارتن يحبك.. بقدر ما يستطيع أن يحب. وريكي يحبك.. ولديك أصدقاء كثيرون.. وأنا أحبك.

- أنت تحاول مواساتي! كيف تدّعي حبي وأنت تتشاجر معي دائماً؟ ثم

لوالدي عمله، وريكي سيرحل، وأنت لن تبقى! هل ستبقى؟ هل ستبقى؟

أفلت نيرو نفسه من بين ذراعيها، وقال بهدوء:

- لا.. فأنا مسافر بعد حفلة عيد ميلادك.. ولا أظن من الحكمة أن أبقى.

- لِمَ لا؟

- لأن هناك شيء في علاقتنا يشكل خطراً.

- ظننتك تحب الخطر.

- ليس مع ساذجة في السادسة عشرة.. حتى ولو كانت سيدة ماكرة.

رفعت رأسها بكبرياء:

- يمكن أن نمرح معاً..

- يا إلهي.. هل أنت جريئة هكذا مع كل من حولك؟ ألا تحترمين نفسك؟

- ما الفرق بيني وبينك؟ لماذا يستطيع الرجل العبث كما يحلو له ولا تستطيع المرأة؟

- الفارق في السن أولاً، ثم هناك التمييز. إذا راق لك هذا أم لا، فالمجتمع يغفر هفوات الرجال، أما النساء فخاسرات دائماً، أنا لم أضع القواعد للحياة فلا تلوميني.. أنا فقط أستفيد منها.

تأوهت يارا:

- أكره الرجال.. إنهم يريدون كل شيء.. ويحصلون على ما يريدون.

- لا تشتمي!

- أنت تشتم! وسأفعل مثلك لو أردت! أرفض القبول بمقاييس مزدوجة! أنا أحب أبي، وأنت، وريكي. فانظر إلى أين أوصلني هذا! لا شيء سوى للقلب المحطم!

مد نيرو يد إشفاق، فصفعتها يارا. عيناها شديدتا السواد في وجه أبيض.. وهمست:

- لا.. لن تؤلمني مرة أخرى.. ولا واحد فيكم.. أنا التي سوف أتسبب

بالألم.. أنوي الاستمتاع بالحياة والاستفادة منها كما يفعل سواي.. إذا كان ريكي سيسافر، سأصبح أنا وريثة أبي.. وسينتهي بي الأمر إلى إدارة الشركة بقساوة رجل.. انتظر لترى.. نيرو فوغارتي..

تفرس بها طويلاً بوجه متجهم، ثم قال بصوت شاهق:

- يارا! إذا كنت أحببتني يوماً.. افعلي شيئاً واحداً لي.. لا تسلمي مقاليد نفسك لرجل لا تحبينه، أي شيء آخر ما عدا هذا.

أدارت له ظهرها وأصغت بقلب متألم وهو يغادر الغرفة.

ليلة عيد ميلادها السادس عشر، ترك ريكي الفتيات لأصدقائه ليلاحق نيرو العابس، وكانت يارا أكثر إشراقاً وشجاعة مما كانت عليه طوال حياتها.

وراقبها نيرو بذهول واكتئاب.. أخيراً اختفى.

مر وقت طويل قبل أن يعود، زياراته كانت قصيرة وتنتهي دائماً بشجار.. آخر شجاراتهما كان فظيعاً، المنزل كله ضج بأصوات الاتهامات، وترك والدها مهتاجاً غاضباً.

تحطم قلب يارا لاكتشافها أنها متبناة لكنها لم تبك بعد ذلك أبداً.. ولم تعد تثق بأحد.. فقد تظاهرت أن ما حدث لم يحدث أبداً، وأنها ابنة مارتن وصوفي غارينتي. وبنت لنفسها حاجزاً لا يمكن اختراقه، وحولت كل رغباتها إلى عمل تدفع نفسها أقسى فأقسى.. وتراقب نفسها تتحول إلى النجاح.. لكن بدون إحساس تجاه أحد.

كان يمكن للأمور أن تكون مختلفة تماماً في أي من لقاءاتها مع نيرو، بدلاً من الشجار، وتبادل الكلام الحاد، لكنّ أحداً منهما لم يجرؤ على المخاطرة بالنتائج.. وكيف لها أن تعرف ما إذا كان سيحبها بدافع الشفقة؟ هو وحده يرى كم هي متعلقة بريكي لأنه كل ما بقي لها في هذا العالم.

ابتسمت يارا بقلق.. لقد أغلقت كل الأبواب على حقيقة حاجاتها لتحمي نفسها من حتمية أنها ستسير حتى آخر العالم بحثاً عن نيرو لو أتيحت لها الفرصة.. لكن كرامتها لن تسمح لضعفها المجنون أن يظهر.

في اليوم التالي للحفلة فوق المركب، لم يتوقف هاتفها عن الرنين.. كل

صديقاتها قررن بشكل عجائبي، إقامة حفلات، ويرغبن أن تحضرها مع جاي.. و.. يتوقفن جميعاً عند هذه النقطة.. ثم يضحكن بتوتر. هل لدى يارا عنوان الرجل الرائع الذي خطف المركب في النهر؟

كانت على الهاتف مع إحداهن حين دخل نيرو مكتبها، يرتدي بذلة صيفية إيطالية.. وبدا جذاباً جداً.

بقيت يارا في جلستها المرتاحة، ولم تزعج نفسها بإظهار سخطها من سكرتيرتها، التي كانت ترفع كتفيها بذهول قرب الباب.. وفكرت أن نيرو بإمكانه شق طريقه بكلامه المعسول حتى إلى خزينة الدولة.

قالت يارا بحلاوة لصديقتها على الهاتف:

- أوه.. أتى الرجل المرتدي ثياباً وكأنها للدعاية التجارية! لمَ لا تسألينه بنفسك؟ إنه هنا.

ومدت يدها بالسماعة إلى نيرو تقول ساخرة:

- إحدى معجباتك.. إنها تتمرن على الأنفاس العميقة الآن..

ارتفع حاجبه وطافت عيناه آلياً على يارا، ثم أخذ السماعة وجلس بخفة على طرف الطاولة يتأكد بحذر أن بنطلون بدلته الرمادية يخلو من التجاعيد.. وابتسمت يارا لنفسها.. إنه إيطالي بدون شك.

- مرحباً..؟ جين..؟ أوه أجل الشقراء بالشعر الأصفر كالبيض والساقين اللتين لا نهاية لهما..

ضحك بصوت أجش:

- عرفتك بكل تفاصيلك.. لك شامة على كتفك الأيسر..؟ هذا ما ظننته.

سخرت يارا.. إنه لا ينسى أنثى أبداً، له ذاكرة فوتوغرافية.

- سأحب هذا.. لم لا تكون الليلة؟ في التاسعة..

أشار بيده يطلب قلماً.. فتجاهلته يارا متكبرة.. فتش عن ورقة فارغة في مفكرتها، ووجد واحدة تبعد شهراً في تاريخها وكتب عنوان جين.. ثم ودعها.

بالألم.. أنوي الاستمتاع بالحياة والاستفادة منها كما يفعل سواي.. إذا كان ريكي سيسافر، سأصبح أنا وريثة أبي.. وسينتهي بي الأمر إلى إدارة الشركة بقساوة رجل.. انتظر لترى.. نيرو فوغارتي..

تفرس بها طويلاً بوجه متجهم، ثم قال بصوت شاهق:

- يارا! إذا كنت أحببتني يوماً.. افعلي شيئاً واحداً لي.. لا تسلمي مقاليد نفسك لرجل لا تحبينه، أي شيء آخر ما عدا هذا.

أدارت له ظهرها وأصغت بقلب متألم وهو يغادر الغرفة.

ليلة عيد ميلادها السادس عشر، ترك ريكي الفتيات لأصدقائه ليلاحق نيرو العابس، وكانت يارا أكثر إشراقاً وشجاعة مما كانت عليه طوال حياتها.

وراقبها نيرو بذهول واكتئاب.. أخيراً اختفى.

مر وقت طويل قبل أن يعود، زياراته كانت قصيرة وتنتهي دائماً بشجار.. آخر شجاراتهما كان فظيعاً، المنزل كله ضج بأصوات الاتهامات، وترك والدها مهتاجاً غاضباً.

تحطم قلب يارا لاكتشافها أنها متبناة لكنها لم تبك بعد ذلك أبداً.. ولم تعد تثق بأحد.. فقد تظاهرت أن ما حدث لم يحدث أبداً، وأنها ابنة مارتن وصوفي غارينتي. وبنت لنفسها حاجزاً لا يمكن اختراقه، وحولت كل رغباتها إلى عمل تدفع نفسها أقسى فأقسى.. وتراقب نفسها تتحول إلى النجاح.. لكن بدون إحساس تجاه أحد.

كان يمكن للأمور أن تكون مختلفة تماماً في أي من لقاءاتها مع نيرو، بدلاً من الشجار، وتبادل الكلام الحاد، لكنّ أحداً منهما لم يجرؤ على المخاطرة بالنتائج.. وكيف لها أن تعرف ما إذا كان سيحبها بدافع الشفقة؟ هو وحده يرى كم هي متعلقة بريكي لأنه كل ما بقي لها في هذا العالم.

ابتسمت يارا بقلق.. لقد أغلقت كل الأبواب على حقيقة حاجاتها لتحمي نفسها من حتمية أنها ستسير حتى آخر العالم بحثاً عن نيرو لو أتيحت لها الفرصة.. لكن كرامتها لن تسمح لضعفها المجنون أن يظهر.

في اليوم التالي للحفلة فوق المركب، لم يتوقف هاتفها عن الرنين.. كل

صديقاتها قررن بشكل عجائبي، إقامة حفلات، ويرغبن أن تحضرها مع جاي.. و.. يتوقفن جميعاً عند هذه النقطة.. ثم يضحكن بتوتر. هل لدى يارا عنوان الرجل الرائع الذي خطف المركب في النهر؟

كانت على الهاتف مع إحداهن حين دخل نيرو مكتبها، يرتدي بذلة صيفية إيطالية.. وبدا جذاباً جداً.

بقيت يارا في جلستها المرتاحة، ولم تزعج نفسها بإظهار سخطها من سكرتيرتها، التي كانت ترفع كتفيها بذهول قرب الباب.. وفكرت أن نيرو بإمكانه شق طريقه بكلامه المعسول حتى إلى خزينة الدولة.

قالت يارا بحلاوة لصديقتها على الهاتف:

- أوه.. أتى الرجل المرتدي ثياباً وكأنها للدعاية التجارية! لمَ لا تسألينه بنفسك؟ إنه هنا.

ومدت يدها بالسماعة إلى نيرو تقول ساخرة:

- إحدى معجباتك.. إنها تتمرن على الأنفاس العميقة الآن..

ارتفع حاجبه وطافت عيناه آلياً على يارا، ثم أخذ السماعة وجلس بخفة على طرف الطاولة يتأكد بحذر أن بنطلون بدلته الرمادية يخلو من التجاعيد.. وابتسمت يارا لنفسها.. إنه إيطالي بدون شك.

- مرحباً..؟ جين..؟ أوه أجل الشقراء بالشعر الأصفر كالبيض والساقين اللتين لا نهاية لهما..

ضحك بصوت أجش:

- عرفتك بكل تفاصيلك.. لك شامة على كتفك الأيسر..؟ هذا ما ظننته.

سخرت يارا.. إنه لا ينسى أنثى أبداً، له ذاكرة فوتوغرافية.

- سأحب هذا.. لم لا تكون الليلة؟ في التاسعة..

أشار بيده يطلب قلماً.. فتجاهلته يارا متكبرة.. فتش عن ورقة فارغة في مفكرتها، ووجد واحدة تبعد شهراً في تاريخها وكتب عنوان جين.. ثم ودعها.

أبقت يارا السماعة مفتوحة.. سيكون كثيراً على غروره لو وصلتها مكالمات أخرى تتوسل إليها عنوانه وهو لا زال في مكتبها.

مزق الصفحة التي كتب عليها عنوان جين ورقم هاتفها.

- واعدة؟

- لا.. ليست هكذا.

ووقفت تعرف كم تبدو أنيقة في بدلتها الرمادية. وقالت بجدية: ماذا الآن؟

تساءلت لماذا يراقبها نيرو وهي تدعك ظهرها المتألم بنظرة متشددة.. أكملت:

- أنا مشغولة جداً.

سألها ببراءة: ألم في الظهر؟

- أنا مندهشة أن لا يكون في العنق.

قال بإشفاق:

- أعرف.. أمر متعب.. وأنت كثيرة الأعمال وتتحدثين إلى أصدقائك.

- قل ما جئت لتقوله واذهب.

- مشغولة إلى هذا الحد؟ لم يبدُ عليك مستعجلة جداً حين دخلت.

وأخذ يدور حول طاولتها يتفحص كل شيء:

- هل تقوم بمسح للمكان؟

ابتسم بخبث:

- ماذا؟ أوه.. أنا آسف.. إنها العادة.. لا يمكن أن يعرف المرء متى قد يستولي على عمل ما.. أليس كذلك؟

- أجل.. أعرف.. وأنت تعرف أيضاً.. لذا توقف عن هذا العبث.. ماذا تريد؟

- اللهو، النساء، والموسيقى.. وأنت ماذا تريدين؟

- أن أعرف ماذا جاء بك إلى هنا.. ولا تقل لي إن تاكسياً من لندن أوصلك أو أي شيء مماثل، فهي نكتة قديمة ولست في مزاج لسماعها.

- همم.. أنت فعلاً تتوترين حين أظهر.. ألست هكذا؟ أعتقد أنك مصممة على أن تظهري أنك الأكثر برودة.. غريب كيف أدخل تحت جلدك.. أليس كذلك؟

- أبداً.. ليس هذا غريباً.. فأنت أكثر الأشخاص إثارة للتوتر في العالم.. والآن نيرو.. لقد انتهى وقتك.. أخرج والعب لعبة الكلمات المتقاطعة في مكان آخر.

أخذت يارا سماعة الهاتف وطلبت السكرتيرة:

- لودي، اطلبي الأمن إلى هنا.. أتسمحين؟ ثلاثة من أعتى رجالهم.

سأل بذهول:

- ثلاثة رجال أشداء من أجلي؟

قالت يارا للودي:

- فليكونوا أربعة.. أريد رؤية هذا المتطفل يطير وكأنه جنية.

قال نيرو فجأة: ريكي مريض.

ضاقت عينا يارا وقالت للودي بحدة:

- الغي ما طلبته منك.

حاولت منع يدها من الارتجاف وهي تضع السماعة من يدها.. وتابع نيرو:

- قد تتصل هيلين بك.. إنها زوجته!

- أعرف من هي هيلين.. ماذا به؟

- لا أريدك أن تذهبي إلى صقلية.. لا أريدك أن تريه.

نظرت إليه مندهشة تتأمل وجهه الجامد.

- ولمَ لا؟ هل مرضه معدي؟

تقدم إلى طاولتها ليقف وظهره إليها، وكادت تقسم أن كتفيه بدتا منخفضتين أكثر من المعتاد.. اجتاحها الذعر.. ريكي مريض، ونيرو يحاول منعها من رؤيته.

صاحت:

- رد على سؤالي.

دون أن يستدير، هز رأسه:

- لا أعرف الاسم الإنكليزي المناسب لما يظنون أنه مصاب به.. شيء مثل التهاب العمود الفقري.. الفقرات ملتهبة، وهذا ما يجعل العمود الفقري متصلباً لا يتحرك.. وهو مؤلم.

جلست يارا.. لم تعد ساقاها قادرتين على حملها.. نيرو قذر.. قاسي القلب.

- يا إلهي! تعرف هذا كله منذ الأمس ولم تقل لي؟ تجول بي في لندن، توزع البالونات، والآيس كريم، وتسعى بي وراء الكنز الغبي.. وطوال الوقت تعرف بأنني لا أعرف بمرض ريكي؟ أيها القاسي، البارد القلب، النذل الذي لا إحساس لديه.

قال بصراحة:

- لا شيء يمكن أن تفعليه، لا شيء يمكن لأحد منا أن يفعله.. الأمر كله بين أيدي الأطباء والاختصاصيين.

ردت متوترة:

- كان يجب أن تقول لي! كيف حصل له هذا؟ ما هو التشخيص للمستقبل؟ من الأفضل أن تقول لي الحقيقة.

- آلام في الساقين، ثم في الظهر.. حين اكتشفت الأمر أرسلته لإجراء فحوصات دم ثم صور شعاعية وهو الآن يتناول أدوية مضادة للالتهابات.

صمت.. أحست يارا بالكثير من المعاني في ذلك الصمت، أرادت أن تركض إليه وتهزه.. أن تقول له ليتوقف عن تعذيبها.. لكنها كانت تعرف أنها لن تتمكن من الوصول إليه.. وقالت بصوت منخفض:

- يجب أن تقول لي كل شيء.. لي الحق أن أعرف، إنه توأمي.

استدار إليها غاضباً:

- ولماذا تهتمين به؟ إنه يتعذب منذ ستة أشهر وأنت لم تعرفي، لأنك عنيدة ترفضين رؤية الحقيقة، وبسبب كبريائك الغبية وولائك الغبي لوالدك..

صاحت:

- كفى! توقف عن هذا! كفى!

لدهشتها ودهشته، انفجرت بالبكاء بيأس وعجز وغضب.. وأدارت نفسها في مقعدها بحيث أصبح ظهرها إلى نيرو، كي لا يراقبها بعينيه القاسيتين.

قال دون تأثر بدموعها:

- لا أريدك أن تضعي قدمك في صقلية.. ستتسببين بسوء حالته.

قالت منتحبة:

- اشتقت إليه! أنا أحبه! أريد توأمي.. هذا معروف أطلبه منك.. ساعدني على الصلح مع أخي.

سمعت من خلفها صوت أنفاس نيرو الحادة، واستدارت والدموع في عينيها.. على الفور تعرفت على نظرة الألم في تعابير وجهه والإشفاق الذي لا حدود له نحوها.

صاحت ببؤس تمد ذراعيها نحوه: أوه.. نيرو!

تقدم إليها ببطء، وتردد.. ركع قربها ثم أمسك رأسها بلطف بين يديه ووضعه على كتفه، حيث بكت بغزارة.

قال بنعومة:

- لقد مضى زمن طويل لم نمتلك فيه مثل هذه الثقة ببعضنا.. هل تذكرين كيف ضممتك بين ذراعي ذلك اليوم الذي حاولت فيه تسلق شجرة الدردار، ووقعت؟

نفخت أنفها متذمرة:

- أنت وريكي تسلقتماها لتهربا مني.

- لا.. لقد تسلقتها لأختبر مهارتي، ولحق ريكي بي كما يفعل دائماً.. وأنت لحقت به لأنك أحسست بالغيرة.

مررت يدها على عينيها بدون اهتمام بإفساد الكحل على عينيها.. فقد غضبت لتذكرها تعلق ريكي بنيرو.

ـ لقد كرهتك يومها.

ـ أعرف.. وماذا عن أول يوم جرحت فيه؟

أصبح صوته لا يكاد يسمع.. وأحست يارا بالتوتر يتمدد في الغرفة وهو ينتظر ردها.. أدارت وجهها بعيداً، لكن يده أعادته إلى مواجهته بقسوة.. مع ذلك بقيت صامتة محاولة عدم التفكير بأي شيء.

قال:

ـ أتذكرين.. الصوت الهادر كالرعد.. ثم العتمة المخيفة المفاجئة.. وقبل ذلك، الحب الذي كنت تحملينه لريكي ولأمك الحقيقية..

بدأت الدموع تتدفق على وجهها مرة أخرى. فوق كل حزنها وكربها على ريكي، كان يكدس أمامها صوراً حاولت بيأس أن تتهرب منها. صوراً من النوع الذي تتكون منه كوابيسها.. كيف له أن يعرف هذا؟

تأوهت:

ـ لا تعذبني! أنا لا أذكر شيئاً من هذا! يا إلهي.. أكرهك! دعني وشأني!

تنهد نيرو وأعطاها منديله الحريري الأسود بدون كلمة أخرى، وراح يتأملها وهي تأخذ مرآة صغيرة من حقيبة يدها تصلح تبرجها.

قالت مرتجفة بعد أن وضعت أحمر الشفاه:

ـ خذني إلى صقلية.

لم يتغير تعبير وجهه: ستكرهينها.

ـ أنا لن أقع في حب الجزيرة اللعينة. أنا ذاهبة كي أرى أخي.. لن تعرف ماذا يعني هذا لي، ولن تعرف معنى رابط الدم مع شخص آخر. كيف لك أن تفهم؟ أنت أناني ولا تحتاج لأحد.

ضاقت عينا نيرو مجدداً، لكنها كانت غارقة في قلقها، فلم تسأله ما به.

سألها:

ـ ماذا عن أعمالك؟

ـ لا تسخر.. لا شيء أكثر أهمية عندي من ريكي الآن.. وإذا لم تأخذني، سأذهب وحدي.

أدرك إصرارها على الذهاب، فاستسلم بأناقة كما عرفت أنه سيفعل.

ـ سوف آخذك.. أفضل أن تكوني تحت نظري بدلاً من السفر وحدك والدخول في كل أنواع المشاكل.

ـ يدهشني أن تهتم!

قال بهدوء:

ـ أنا أهتم باسم ريكي الطيب الذكر..

ـ يا إلهي.. لم يكن لدي فكرة!

ـ هناك الكثير مما ليس لديك فكرة عنه يارا.. متى تريدين الذهاب؟

ـ يجب أن أتكلم مع والدي أولاً. عليه أن يجد شخصاً آخر يتولى أمراً كنت أقوم به لأجله.

أعطاها بطاقة:

ـ دعيني أعرف.. اتصلي بي في أي وقت.

سألت ساخطة:

ـ ما عدا في وقت متأخر من الأمسيات؟

وتذكرت موعده مع جين تلك الليلة.. تابع كلامه:

ـ قلت في أي وقت.. على فكرة، هل تمانعين لو خرجت سكرتيرتك باكراً؟ بيننا موعد مبكر.

شهقت يارا:

ـ اثنتان في أمسية واحدة؟

ـ وهل هناك قوانين تحدد العدد؟

ـ لو كان هناك قوانين، لكسرتها أنت.

اتجه إلى الباب:

ـ سأقول لها إنك تسمحين لها بالخروج في وقت مبكر.

ـ لا.. لن تفعل.. وستغادر العمل متى انتهيت أنا. وما عليك سوى العمل بسرعة أكثر لتصل بالاثنتين إلى فراشك في الوقت المتوفر لك.

ابتسم نيرو:

ـ أنصحك بمراقبة مشاعرك فالغيرة واضحة في ردة فعلك.. أتعرفين هذا؟

ـ لا نيرو.. إنها الشفقة.. على جين ولودي. أما أنا فسأكون مضطرة إلى لملمة ما سيتحطم منهما وأن أصغي إلى تفاصيل ما حدث بينك وبينهما بكل دقة.

ضاقت عيناه، وقال ساخراً:

ـ يا لكن من ثرثارات.. أنتن النساء! لكن بالتأكيد لا تعنين التفاصيل الدقيقة مثل..

صاحت وسكين الغيرة القاطعة تغرز في صدرها:

ـ لا تتابع.. أجد من المخجل جداً أن أستمع إلى مغامراتك.. سأتصل بك.

التوى فمه لنوعية كلماتها المختارة.. فالتقطت ثقّالة ورق ورمته بها.. لكنها أصابت الباب المقفل وراءه. استسلمت بغضب وحاولت أن تبقي تفكيرها في عملها.. كانت فكرة السفر إلى صقلية تملأها بارتباك غريب.. شيء رهيب حدث هناك وهي طفلة.. إنها متأكدة من هذا، ولا تريد أن تعرف ما هو.. ولو ذهبت إلى هناك فقد تتذكر.. حياتها الحالية صعبة بدون أن يلاحقها ماضيها.

***

٤ ـ الشمع يذوب بين يديه

بعد عدة أيام، هبطا بالطائرة في پالرمو عاصمة صقلية.. ولزم يارا وقت لا بأس به لإقناع والدها بأنها يجب أن ترى ريكي.. وانزعج كثيراً لأنها فكرت بترك المشروع الذي تعمل عليه.. فقد كانت مشغولة بنوع من التحقيق السري وعليها تناول طعام العشاء مع رجل من مصرف الاستثمار الأوروبي.. والهدف هو إقناعه بدعم مؤسسة مشاريع غارينتي وتمويل شراء موقع عمل في منطقة الجنوب الغربي الكاسدة.. ويمكن لهذا المشروع أن ينتظر.

قال نيرو يلتقط حقيبتها من العربة:

ـ آسف لأننا لن نستطيع الوصول سوى إلى پالرمو.

بالنسبة ليارا بدا مطار «بونتا دارايزا» مطاراً بسيطاً بعد كل الفخامة التي اعتادت عليها في مطارات العالم الأخرى.. لكنها سألت ساخرة:

ـ وما المشكلة؟ عدا أن المكان كله متخلف عن الزمن بما لا يقل عن مئة سنة!

ـ لكنه يكفي.

توقف نيرو قرب موظف الجمارك الذي أشار إلى الحقيبة الخفيفة.. ففتح نيرو الحقيبة وبدأ الرجل في إفساد ترتيب الملابس وذهلت يارا لفرصة النظر دونما توقع إلى حياة نيرو الخاصة.

لكنها لم تعرف الكثير.. لم يكن هناك مجلات جريئة، ولا شيء يذكر بالنساء.. فقط بذلتان صيفيتان خفيفتان، عدد من القمصان المكوية المطوية، مناديل سوداء بالطبع.. وملابس داخلية..

فتح الرجل حقيبة جلدية صغيرة، وبدأ يفتح كل زجاجة فيها يشمها بارتياب ويضع الزجاجات على الطاولة بدون أن يزعج نفسه بإعادتها إلى مكانها.. لكن نيرو لم يأبه لما يحدث أبداً، ولم تعرف ما إذا كان قد انزعج أم لا.. بل انتظر بصبر وبوجه جامد.

انتهى الرجل من تفحص الحقيبة التي أصبحت في حالة مزرية.

رد عليه نيرو بهزة رأس ساخرة، فغضب الرجل.. سألت يارا بينما كان نيرو يدس كل شيء بسرعة في الحقيبة:

ـ أتعرفان بعضكما؟

ابتسم نيرو قائلاً:

ـ عدوان قديمان.. لقد أخذ وقته في التفتيش في ملابس داخلية لامرأة كانت معي، وقدمت شكوى ضده.. ولم يعد ينسى هذا أبداً.. الصقليون لا ينسون ولا يغفرون.

ـ كم هذا طفولي.

ـ لا.. بل الكبرياء والتشدد.. نحن ننفّذ عدالة من نوع خاص على الجزيرة.. نساعد العائلة والأصدقاء.. ونساعد في تسوية متاعب بعضنا البعض.. إنها مسألة احترام للنفس في أن لا نترك إهانة تمر بدون انتقام.

ـ يا للسماء.. حكماً على الطريقة التي تتصرف بها، لا بدّ أنك مشغول دائماً بالانتقام لكل الإهانات.

لمعت عيناه:

ـ سنأخذ السيارة المستأجرة، ونبدأ في الكفاح لشق طريقنا عبر زحام السير.. وأرجو أن تتحمل أعصابك هذا.

قالت دونما اكتراث:

ـ لقد قدت سيارة في روما.. بعد هذا، أي نوع من قيادة السيارات لم يعد له قيمة.

سأل متحدياً:

ـ أترغبين في استلام المقود.. إذن؟

ابتسمت.. سيندهش لبراعتها، إنها سائقة ممتازة..

ـ يعجبني هذا.. لكن عليك أن تعطيني قليلاً من الوقت لأعتاد على الغيارات والمقود وما إلى ذلك.

وأملت أن يندهش نيرو حين تنجح، لكنها لم تنجح.. وتركتها شوارع باليرمو مرتجفة. لا أحد يخضع لأنظمة السير، هذا إذا كان هناك نظام.. وبدا من الواضح أن الجميع يعتبر احترام الإشارات الضوئية نوعاً من الجبن. إذا أراد سائق سيارة الذهاب إلى مكان ما، فهو ينطلق إلى أي مكان أو اتجاه بغض النظر عمن حوله. والفوز لمن لديه الأعصاب الأقوى أو ربما السيارة الأقوى.

حتى المشاة كانوا يعتبرون الطريق من حقهم فقط.. يسيرون هنا وهناك بدون أي اهتمام يذكر بمن حولهم، والسائقون يطلقون أبواق سياراتهم.

صاحت وهي شبه منهارة:

ـ يا إلهي! كأنني أسير عكس السير! كل هذا جنون..

تمتم نيرو:

ـ أتريدين أن أقود عنك؟

نظرت إليه بحقد.. كان يستند إلى ظهر مقعده بارتياح غير مهتم بالضجيج والفوضى حوله.. أما السيارات فمتوقفة بغض النظر عن الأماكن المسموحة حتى في وسط الطريق.

ـ ألهذا السبب رفضت قدومي إلى باليرمو؟ ألأنها مليئة بأطفال يدعون أنهم كبار ويقودون السيارات بشكل أعمى وبلا مسؤولية؟

ـ أوه لا.. الواقع أن الظلام أخذ يهبط، والمطار بعيد عن روكا.. وهذا يعني أننا سنقود مسافة طويلة، هل أستلم القيادة عنك؟

ـ لا.. لكن ما هي الحكمة من وراء هذا النوع من التصرف؟

ضحك:

ـ حين تعيشين في جزيرة خرّبتها البراكين والزلازل تضعين إيمانك بالله أمامك وتنطلقين.. آملة بالأفضل.

وما إن أصبحا على الطريق الرئيسية المفتوحة حتى حل الظلام، وتمزقت أعصاب يارا، جسدها كله يؤلمها لشدة التوتر وإمساك المقود بقوة. القيادة في باليرمو تجربة لن ترغب في تكرارها أبداً وقالت متجهمة:

ـ أعتقد أنني سأسافر من كاتانيا في طريق عودتي.. أو أركب الباخرة.. أو حتى أسير فوق الماء.

ضحك نيرو:

ـ لقد تدبرت أمرك بشكل رائع.. لك رأس هادىء بارد.. وأعصاب ممتازة.

تهلل قلبها لمديحه.. إنه لا يمدح الناس عادة.

ـ إلى ماذا تسعى؟

ـ إليك.. ماذا تظنين بحق السماء؟ استديري من هنا.

تراجعت الأنوار المتلألئة أمام سواد الليل، وأدركت أنهما أصبحا في الريف.. عمق الريف حيث لا يوجد أحد من السكان.. فالكل أخلد إلى فراشه والساعة تجاوزت العاشرة.

سألت:

ـ ليس هناك من حياة ليلية هنا، أليس كذلك؟

ـ المكان ميت.. أشهر الفنانين لا يمكنه أن يُنجح موسم الصيف هنا.

ـ أشك في أن يكون أحد هنا قد سمع بفنان مشهور. ماذا يفعل الناس للتسلية؟

ـ أوه.. نطرز ونراقب القمح وهو ينمو.. وفي الليل، يخصص الكبار أوقاتهم لإنجاب الأطفال.

ـ لا تدهشني هذه النشاطات.. وماذا سأفعل أنا بعد حلول الظلام؟

مد يده يلامس عنقها:

ـ ستصابين بالإحباط طبعاً، ولكن كما أعتقد أستطيع أن أساعدك..

نفضت رأسها متوترة.. وقالت مقطبة:

ـ هناك حاجز على الطريق.

وخففت سيرها لرؤيتها عموداً مخططاً بالأبيض والأحمر.. فقال:

ـ أنت تغيرين الموضوع. نحن نتحدث عن الغزل.

ـ أنت تتحدث عنه.. لكنني أكثر اهتماماً بالحاجز.

تمتم وهو يدس يده في شعرها:

ـ دعيني أحطم الحاجز.

شدت يارا على أسنانها وقالت بخشونة:

ـ أحاول التقرير في أي اتجاه أذهب.

ـ وأنا أحاول إرشادك.

ـ أليس هناك في رأسك سوى أن تثبت رجولتك؟ أي طريق يجب أن أسلك بالسيارة؟

ـ اخترقيها ولا تهتمي.. إنهم يضعون الحواجز دائماً.. وهي لا تعني شيئاً.

ـ لا بدّ أنك مجنون.

تجاهلته وتبعت الإشارات، ولم تمض نصف ساعة حتى لم تعد تستطيع الاستمرار.. فالطريق لم تكن معبدة، واضطرت إلى تخفيف سرعتها لتجنب اصطدام رأسها بالسقف لدى ارتطام السيارة بحفرة أو صخرة.. قالت بغضب:

ـ لا أستطيع تحمل المزيد.

ـ ولا أنا.

نظرت إليه بقلق، فرأت عينيه مركزتين عليها.. رفع نظره مبتسماً فأحست يارا بغضب بارد.. إنه يحاول إزعاجها بمزاحه.. وأوشكت أن تتذمر حين ارتجف المحرك فجأة بدون سابق إنذار. ثم دفعهما إلى الأمام، ثم مات.. ساد صمت رهيب شديد الوطأة.

فقالت بصوت ينذر بالشؤم:

ـ أليس من الأفضل أن ترى ماذا حدث؟

ـ أنا؟ وفي هذه الملابس؟ أين أصبحت المساواة؟ ألست أنت السائقة؟

خرجت تصفق الباب خلفها، تفتح الغطاء وتنظر إلى المحرك آملة أن ترى شيئاً واضحاً. كان الطقس مثلجاً، وأخذت ترتجف.. انضم رأس نيرو إلى رأسها فوق المحرك بطريقة ودية أثارت توترها لأنها أحست به يكبت مرحه الضاحك.

قال بطريقة عفوية:

ـ لقد نفد الوقود.

ـ ماذا؟

ـ ليس في الخزان وقود.

ـ ولماذا لم...؟

أقفلت فمها.. كان يجب عليها هي أن تتفحص العداد، لكنها كانت متشوقة لأن تظهر له أنها سائقة ممتازة.. وقالت بهدوء: أيها الحقير.

قال بحبور مزعج:

ـ الظلام شديد.. أليس كذلك؟

ـ حسن جداً أيها الذكي.. ماذا سنفعل الآن؟

ـ أظن أننا سنتجمد.. فالجو بارد جداً.

لم تكن يارا ترتدي ثياباً تناسب مثل هذا الطقس.. لكنها أتت معها بكنزة صوفية لتضعها فوق فستانها الصيفي.. إلا أنها لم تكن تكفي في وجه هذا الهواء اللاذع.. وتمتمت متجهمة:

ـ أكره هذا المكان.. كم يبعد عن أي شيء متمدن؟

ـ لا فكرة لدي.. لم أسافر من قبل على هذا الطريق.. حسناً يارا.. هل سنقضي الليل في السيارة أم تحت شجرة زيتون وبين ذراعي بعضنا؟ أو ربما نتابع السير على هذه الطريق أملاً في مقابلة راعٍ صديق أو عصبة من قطاع الطرق؟

نظرت إليه بغضب، ودعكت ظهرها المتألم.

ـ قطاع طرق؟

ـ ألم تسمعي أننا خارجون عن القانون في هذه الجزيرة؟

تمتمت:

ـ لا أستبعد أن تكون رتبت كل هذا.

سأل ببراءة:

ـ كيف؟ ولماذا؟ كيف لي أن أعرف أنك لن تقودي السيارة عبر الحاجز كأي صقلي عاقل..

ـ أوه.. لن أستطيع قضاء الليل كله متجمدة وأنا أتبادل الكلام معك.. سوف أنام قليلاً.

ما إن فتحت باب السيارة الخلفي، حتى كان نيرو يفتح الباب من الجهة الأخرى.. فقالت ببرود:

ـ لا يمكننا أن ننام معاً في المقعد الخلفي.

ـ يا صغيرتي «كاساتا» أنا أطول بكثير من أن أتمدد في المقدمة.. ولن أستطيع السير مرة أخرى لو فعلت.

دخلت تتمتم:

ـ يا لك من قوي.

انتهى بهما الأمر في وضعية غير ملائمة وبدت كأنها تستلقي على صدره العريض. أدارها قليلاً واضطرت إلى الاعتراف بالارتياح.. تمتمت تهدّد، أكثر تعباً من أن تقاوم:

ـ دع يداً واحدة تشرد أو حتى أصبعاً واحداً.. وسأقضمه.

تمتم بدوره:

ـ أعرف الآن من هي آكلة الرجال.

ردّت هامسة:

ـ اخلد إلى النوم أيها الرجل الشرير الذي لا يتعب.

ـ سأحاول.

لا بد أن يارا نامت على الفور، لكن أحلامها كانت مزعجة. بدا لها أن نيرو معها، لكنه كان يكاد يسحق الحياة فيها.. وكان هناك صوت راعد في

أذنيها . . كانت تصرخ بصمت، ثم استيقظت لترى أن نيرو يحتضنها، ويتمتم بكلمات لطيفة بدا لها أنها تعرفها . . لكنها كلمات باللغة الصقلية وهي لا تفهمها .

صاحت مشوشة الفكر : نيرو !

قال بالإنكليزية بصوت هامس رقيق :

ـ لا بأس عليك . . أنا هنا . . هل ترين دائماً أحلاماً سيئة؟

ردت وهي لا تزال ترتجف :

ـ لا . . نادراً .

ـ دائماً الحلم ذاته؟

هزت رأسها وبدا راضياً :

ـ تعالي لنراقب الفجر .

ـ أوه . . يا إلهي . . أنا لم أرَ الفجر يوماً في مثل هذا الوقت من اليوم .

ضحك نيرو . . وغادرا السيارة يمددان أطرافهما . . مد لها يده يرفع حاجبه بسؤال . . تركته يجذبها إليه وانتظرا بصمت يستندان إلى جذع شجرة . .

أخذ ما يحيط بهما يظهر أكثر فأكثر، لتبدو أشكاله : أشجار، زهور، تلال، كلها ملونة باللون الزهري .

قال ساخراً :

ـ الساحرة تكشف عن وجهها .

ابتعدت عنه تقول بلهجة قاسية متهمة :

ـ المنظر جميل جداً . . وأنت ساخر في كل شيء لمجرد التأثير على الناس .

ـ لا . . أعرف أن كل هذا مجرد وهم . . وهذه مأساتي يارا . . اجلسي . . أريد مكالمتك قبل أن تري ريكي .

بدا عليها القلق فوراً : لماذا؟

ـ أعتقد أن من الأفضل أن تتحضري للطريقة التي يعيش فيها ريكي .

ـ أتحضر لماذا؟ قلت لي إنه العمدة . .

تأوه نيرو :

ـ إنه أحمق عنيد متمسك بالمثاليات . . قرية روكا فقيرة جداً، ولا يقبل أن يعيش في أي مكان أكبر من «البنسيون» الذي تديره هيلين، مع أنه قادر على تحمل المصاريف، أو كان يوماً قادراً على تحملها . . فقد بدد معظم أمواله على القرية .

قالت بأسى :

ـ هذا هو ريكي . . لا بد أنه فخور بما يقوم به من تحسينات .

ـ هذه هي المشكلة، يظن أن ماله بئر لا قرار له ولا يعرف كيف يتدبر أمره، كيف يخطط، كيف يفرض نفسه بما يكفي . . ثقافته أثرت على الناس، لكنه لا يملك شيئاً من حكمتهم حين يصل به الأمر إلى التنفيذ .

قالت بحدة :

ـ أنا قادرة على هذا . . وأستطيع مساعدة ريكي .

تصلب نيرو . . أدار رأسه يرى ما إذا كانت تعني ما تقول . . في تلك اللحظة كانت تعي ما تقول . . وتريد أن تظهر لهذا الرجل المتعجرف أنهما قادران على النجاح معاً لو حاولا . . وبدت لها فجأة فكرة تحسين القرية التي ولدوا فيها جميعاً، فكرة رائعة .

سألها :

ـ أنت . . تريدين مساعدته؟

ـ لمَ لا؟ أنا قاسية كأي واحد من القرية .

صمت نيرو . . ثم قال :

ـ أنا موافق معك . . لكن لن يكون هذا عدلاً، فستبدأين بالتدخل ثم ترحلين .

ـ سأبقى إلى أن أنتهي . . ريكي وأنا سوف نتصالح، ومع اتصالات أبي . .

صاح نيرو مقاطعاً :

ـ لا . . ! يجب ألاّ يتدخل . . أمنع هذا! لا تسببي العار لريكي بأن تجعليه

يعتقد أنه لن ينجح إلا إذا تدخل مارتن غاريتي.

وتأوه بنفاد صبر وأدار ظهره إليها، وكان لديها إحساس أنه غاضب من نفسه أكثر من غضبه منها. وقالت بحذر:

ـ هناك شيء أكثر من هذا في اعتراضك.

أدار إليها وجهاً مضطرباً:

ـ أجل.. إذا تورطت.. ستبقين في صقلية.

ـ وما الغلط في هذا؟

ـ عدا عن تجميدك للقرية وهي ترتجف بتنانيرك القصيرة وفساتينك المتسعة الياقات.. ستدفعينني أنا إلى الجنون.

ردت بصوت ساخر: حقاً؟

ـ أجل.

رفرفت يارا عينيها.. إنه جاد تماماً.. وبدأت حنجرتها تضيق.. ثم سألت بهدوء:

ـ ماذا تخطط الآن؟

أصبح وجهه القاتم على بعد إنشات من وجهها، ونظرت إليه بعينين متسعتين.

قال يدمدم بقسوة:

ـ ستعرضين نفسك للخطر.. أحذرك.. حين تكون المرأة مراوغة، أجد هذا مغرياً أكثر.. وأنا أجدك جذابة.. وأريدك.. أريدك.

أذهل الغضب والألم اللذان أثارهما كلامه يارا، نيرو لا يفكر أبداً بمشاعرها.. إنه يحاول اللعب عليها.

ـ لا تكن سخيفاً.. فأنا لا أميل إلى اللهو الريفي مثل العبث بين الشجيرات.. ماذا في الرجال حتى يتشوقوا لبدء يومهم بالغزل؟

لمعت عينا نيرو:

ـ هذا شيء له علاقة بالتوازن الجسدي.. دعيني أريك شيئاً من توازني.

ـ لا.. شكراً لك.. ليس ومعدتي فارغة.

ابتسم: حسناً..

بنظرة ساخرة، حاولت أن تبعده عنها، لكنه عاد ودفعها مجدداً، يمسك بيديه ذراعيها.

ـ لا يارا.. لن تهربي مني.. نحن عالقان هنا، ومن الأفضل أن نتمتع بوقتنا إلى أن يجدنا أحد.. وما يمكن أن يكون أفضل من التغازل الصباحي؟

كشرت بأنفها:

ـ معك؟ يمكنني التفكير بألف شيء أفضل.. رحلة باكرة إلى الإعدام.. أو استيقاظ مبكر على يد جلاد لا يرحم.

امتدت يده تلامس شعرها، بحركة بسيطة.. لكنه فعل هذا وكأنه يلمس شيئاً جميلاً نادراً ووجهه مليء بالرهبة، مما جعل قلبها يخفق بشدة.. وقالت بصوت منخفض:

ـ دعني وشأني!

ـ لا أستطيع.. كنت أظن أنني قادر.. كنت أحاول.. لكني وقعت في فخ نفسي.

وأطلق أنفاساً ساخطة.

قالت بصوت متكسر:

ـ معظم الخارجين عن القانون ينتهي بهم الأمر هكذا.

ضحك نيرو ومال برأسه جانباً، يشم رائحة شعرها.. وارتجفت يارا.. كان تصرفه يسلبها مقاومتها ويتركها خالية اليدين من أي دفاع. نظرت إليه مصعوقة ذعراً.

قال:

ـ دعيني أقول لك شيئاً عن الصقليين، عن طريقة تعلمهم الباكر قراءة لغة العيون..

أغمضت عينيها.. وقالت بسيطرة شديدة:

ـ لست مهتمة.

ـ إنهم يبحثون عن الدلائل المخبأة.. إيماءات صغيرة.. توصل

الرسالة.

قالت بحدة:

- يبدو أن رسالتي لا تصل إليك.

تمتم: بلى.. تصل.

تأوهت.

- نيرو..

- يارا..

- هذا جنون.

- أعرف..

ثم جاءها صوت نيرو مفاجئاً:

- يا إلهي! حبيبتي.. لا، لا.

فتحت عينيها وفغرت فاها، فكيف يرفضها هكذا.. أما هو فأغمض عينيه ألماً وإحباطاً، وشد على أسنانه.

صاحت بصوت مرتفع:

- أوه.. نيرو.. نيرو..

تأوه:

- يارا.. لماذا تفعلين هذا بي؟

هو الذي أرادها ثم عاد فرفضها.. كان عقله يبقى منفصلاً: إنه بارع، ماكر، وأحست بالخزي والهوان.. كل ما كان يفعله هو العبث معها، وكأنها دمية.. أفزعها أنها رغبت فيه. بينما هو، كان يسيطر على الموقف طوال الوقت.

أدارت رأسها عنه فقد شعرت بالذل لأنه يرفضها.. وهمست:

- نذل.

توتر جسمه، فأمسك ذقنها وأداره بقسوة.. عيناه كانتا سوداوين غائرتين في وجهه الشاحب.

قال بصراحة مريرة:

- لا.. أوه لا.. لا تبدأي بالتظاهر.. لقد أردت أن أعانقك والأنكى أنك أردت أن تتلاعبي بي.

وضعت يديها على كتفيه، تنظر إليه ورياح ثلجية تهب من أعماق كيانها. بطريقة ما أحست أنها لن تشعر بالدفء مرة أخرى، وما من رجل سيعاملها بعد الآن بمثل هذه السخرية.

في وجه كراهية يارا البارزة، تفهم نيرو الرسالة ووقف.. وفكرت يارا بصمت، لقد مرت العاصفة، ولم تتسبب بأضرار فادحة، وعليها من الآن وصاعداً الوقوف سداً منيعاً في وجه هذا الرجل المتكبر العنيد. تساءلت كيف ستعالج هذا الموقف.

هزت كتفيها بغير اكتراث وكأنه لم يذلها أبداً، المرارة الباعثة للاضطراب كانت تنتفض في أعماقها، وتعذبها.. قالت بصوت صريح:

- لن أنسى هذا.

- ولا أنا سأنساه، ولن أنسى ما دعوتني به.

- أنت تعرف لماذا انزعجت منك.. مع ذلك فهذا ما يمرر الوقت.. شريطة أن لا تبني آمالاً خادعة على ما حدث..

قاطعها من بين أسنانه:

- يا الله! يمكنني أن أصفعك!

ردت ساخرة:

- ولماذا؟ ألأنني جعلت نيرو فوغارتي البطاش يفقد رباطة جأشه وبروده؟

- هذا أمر عادي حين يكون الرجل مع امرأة.

- مع امرأة؟ أوه يا له من تعبير جميل.. أو بلهجة أكثر صدقاً أنا أؤمن فعلاً أنك تتذكر دائماً ماذا يجب أن تفعل.. أعرف كم تفاخر بنفسك لأنك لا تترك لمشاعرك التغلب على حكمتك أو خططك الخبيثة..

- لدي أسباب وجيهة لهذا.. فأنا أقصد حماية نفسي.

قالت ساخرة:

- ولماذا لا تجرب الغاز النافذ الرائحة.

صمت قليلاً، ثم قال بحدة:

ـ أعتقد أن من الأفضل أن نبدأ السير على الطريق.

قالت ساخطة:

ـ لن أذهب إلى أي مكان.. أنت ستذهب.. سأجلس في السيارة وأنتظر حتى تذهب وتأتي بالوقود، أو تجلب دراجة نارية، أو حتى دراجة هوائية تمكنني من مغادرة هذا المكان اللعين، والوصول إلى أخي.. بعد ذلك يمكنك الذهاب إلى الجحيم، ولن أهتم.

ـ هذا ما ظننته.

وسار مبتعداً.

انتظرت يارا إلى أن ابتعد، وعادت إلى السيارة. إنها تكره الجزيرة، تكره كل شيء فيها، تكره نيرو، تصرفه جعلها تشعر وكأنها عبدة له.. الآن أصبح لديه سلطة عليها.. وكل ما عليه أن يفعل هو أن يعانقها حتى تذوب وكأنها كالشمعة بين يديه.

لقد أيقظ أحاسيسها الهاجعة.. وسيكون من الصعب أن ترفضه الآن.. ولكن ليس بالمستحيل.. يجب أن تكتشف ما هي مخططاته الحقيقية.. وتكشف حقيقة أقواله. ولا يجب أن ينورط ريكي بأي شيء دنيء وهو مريض الآن.

ضغطت يدها على قلبها الخافق ترجوه أن يبطيء.. رفضت أن تفكر بالشوق الدافيء المتسلل، الذي كان يحاول أن يغزو كيانها.. جلست مستوية في المقعد الأمامي تجبر نفسها كي لا تكون ضعيفة.

***

٥ ـ أنا سيد الخداع والمراوغة

مر ما يقرب من الساعتين قبل أن يعود نيرو في شاحنة صغيرة يقودها رجل صغير القامة مهلهل الثياب، شعره أسود كثيف متجعد.. وهي مختنقة في حرارة شمس الصباح، لاحظت يارا غير مصدقة، بنطلون المزارع الصوفي السميك المنتفخ وقميصه الشتوي الدافيء والكنزة الدافئة.. عرفت أنه مزارع بسبب رائحة الغنم والماعز المتصاعدة من الشاحنة ساعة توقفت أمامها.

نزل نيرو من الشاحنة وفي يده غالون من البلاستيك ودفع للمزارع ما بدا مبلغاً كبيراً من النقود، وسار بقليل من الترنح إلى السيارة.. بدون نظرة نحوها ملأ خزان السيارة بالوقود، ثم أعاد الوعاء إلى المزارع وصعد إلى مقعد السائق.

ـ لقد تأخرت.. الساعة التاسعة.

ـ تناولنا الفطور.

ـ الفطور؟ كنت أنتظرك طوال الوقت، وأنت تجلس بهدوء لتأكل البيض واللحم وتشرب الشاي؟

ـ بل خبز وعسل، مع الحليب. هل تريدينني أن أرفض الضيافة؟

ـ حين تكون هناك امرأة تنتظرك.. أجل ارفضها.

ـ هنا! رد على هذا.. لكنني لا أظنك في مزاج يسمح لك بسماعه.

ردت ساخطة:

ـ حسناً.. شغّل السيارة إذن.

ـ لا تعترضي.. أنت لست زوجتي.

ـ شكراً لله!

استدار إليها بوجه كالحجر:

ـ اسمعي يارا.. فلتنس خلافاتنا.. هل نفعل؟ ولأجل ريكي، دعينا نتمسك بسلوك مهذب. عدائيتك نحوي لطالما أزعجت ريكي.

ـ عدائيتي..!

وضاعت منها الكلمات.

خلال الساعتين اللتين مرتا واجهت الواقع المذل في أنها تريد نيرو، ولطالما أرادته.. لهذا قررت أن الطريقة الوحيدة لمواجهة تعلقها به، هي التظاهر بأن لا شيء يهمها.

لو عرف أنها ضعيفة أمامه.. فسيجرحها بعمق.. ولو استطاعت إقناع نفسها أنها لا تهتم به، فرؤيته يستخدم سحره على أية امرأة أخرى لن يمزق قلبها.

كل صديقاتها ممن تعرفت إليه، وصفن العلاقة معه بطريقة جعلته يبدو وكأنه خليط من «السوبرمان» و «الدون جوان».. ثم لاحظت، وقد تآكلتها الغيرة، دلائل الرفض حين يتحول نيرو العاشق المحب إلى «المركيز دوساد» زعيم السادية، القاسي القلب، حيث تصبح صديقاتها شاحبات منهكات مثقلات القلب.

حب نيرو المراوغ، لا مستقبل له سوى توفير طريقة غبية للحمية لأية فتاة كي تفقد من وزنها.. ولا يفيد أحد منهن أن تكون مجرد ريشة في قبعته.

لكنها تعرف الآن كيف كان يحدث هذا حتى لأكثر النساء عناداً.. على الأقل، إذا رضيت أن تبقى معه على مستوى مهذب، ولأجل ريكي، فقد تخرج من هذا الموقف بشيء من الكرامة.

قالت ساخرة:

ـ حسن جداً.. فلتكن علاقتنا مهذبة.. لكن هذا لا يعني مهاجمتي كل عشر دقائق.

ـ ستكونين محظوظة، فلن يتاح لك الوقت.

وأدار المحرك لينطلق بالسيارة.

قالت متذمرة:

ـ ألا تفعلون أنتم الصقليون شيئاً بأنصاف حلول؟ تغيير سرعة لطيف مثلاً؟ ثم ماذا تعني: لن يتاح لي الوقت؟

تظاهر بالبراءة:

ـ ألم أقل لك؟ هيلين ستأخذ عطلة لتزور أهلها، وستديرين البانسيون بنفسك.

فتحت يارا فمها، ثم قالت:

ـ أوه.. لا.. لن أفعل.

ـ إذن سيضطر ريكي أن يفعل، فهو بحاجة إلى المال.. وأنا لدي أعمال أهتم بها.. سيضطر إلى جرّ نفسه، وتسوية الأسرة، وطهو الطعام.. بكل بساطة.

ـ أيتها الدودة المتآمرة المخادعة! لقد تعمدت إخفاء الأمر عني.

ـ ألم نتفق على أن نكون مهذبين تجاه بعضنا؟

ـ أمام ريكي.. أما فيما بيننا، فلسوف أحتقرك قدر ما أشاء.

ـ لمجرد أنني رفضتك؟

انفجرت غضباً:

ـ اخرس! لقد سئمت أن أكون محور فكاهاتك، وإهاناتك البذيئة، وسخريتك! من الخارج، تبدو حامي الدم، مثيراً، إيطالياً كاملاً.. لكنك من الداخل، بارد كأنك كومبيوتر موضوع تحت عشرة أقدام من الثلج.. أنت تلتذ بطعني.. حسن جداً.. أنت أكثر براعة مني في الكلام السيء.. فهل تفتخر بهذا؟ لماذا تريد أن تؤلمني؟ أتحب أن تظهر سيطرتك على النساء بأن تحجمهنّ إلى القياس الذي يعجبك؟ هل تحس برجولتك حين تراني أرتبك؟ ما الذي فعلته لك بنات جنسي ليجعلن منك رجلاً مليئاً بحب الانتقام؟

لم يرد نيرو.. كان يحدق إلى الطريق بصمت، عيناه ضيقتان، فكه مشدود كالصخر.. لقد وصلت إليه، وضربت وتراً حساساً لديه.

شيء ما في الطريقة التي كان يكبت فيها أنفاسه جعلها تنظر إليه بحذر أكثر، بدلاً من أن تستمر في تهجمها وتطالبه بالرد.

سألت مختارة: ما الأمر نيرو؟

رفرف عينيه.. ثم قال بوحشية:

- إذا أردت أن تعيشي حياة طبيعية فلا تسألي.

أحست بالبرود في جسمها كله:

- وهل تهددني؟

ساد صمت طويل.. ثم نظر إليها بعينين لامعتين: ربما.

مررت عينيها على جانب وجهه، كان هناك نظرة فيه جعلتها ترتجف.. بشرته مشدودة بقوة فوق العظام القوية تذكرها بصور أفلام العصابات التي شاهدتها. أحست بقشعريرة تتسلل إلى مؤخرة عنقها وهي تتطلع إلى الرجل المنطوي على نفسه الجالس قربها.. كان ينظر إلى الطريق أمامه بعينين ضيقتين وكأنه يريد أن يقتل أحداً.

ثم سأل بحدة:

- أتعرفين شيئاً عن صلاة الغروب الصقلية؟

- لا.. لم أسمع بها.

- إنه ناقوس الثورة عند الغروب ضد الاحتلال الفرنسي في القرن الثالث عشر.. يوم ثلاثاء الفصح، ساعة الغروب، فتش ضابط فرنسي عروساً صقلية بوقاحة وهي في طريقها إلى الكنيسة.

- و..؟

- قتل على الفور.. في وقت لا يذكر، خلال ساعات قتل كل فرنسي في باليرمو، ثم جرى هذا في كل بلدة من صقلية، إلى أن أبيدت الحامية الفرنسية كلها.

نظر إليها بسرعة وتابع:

- وهذا هو بالضبط ما هو مخبأ تحت ظاهر أي صقلي.. عدالة خاصة.. العين بالعين والسن بالسن.

القصة حملت البرودة إلى عظامها.. تذكرت فجأة قصة انتقامه بدم بارد وهو طفل والتي أخبرها إياها ريكي.. قلّد أستاذ في المدرسة دونما حكمة حركة تعبير نيرو ساخراً، مما جعل الصف كله يضحك.. وجلس نيرو صامتاً يبتسم مع الجميع.. وبكل هدوء، تسلل من الصف، وأفرغ حاويات نفايات المطبخ في مكتب الأستاذ.. ومضت أسابيع قبل أن تزول رائحة اللحم والسمك الفاسدة..

وهناك قصص أخرى، ولديها ذكريات خاصة كيف كان نيرو ينجح دائماً في أن تكون له اليد الطولى.. ولا يجب أن تنسى غضبه الموروث.. إنها صقلية، بلد العصابات، والثأر.

الآن يتركها وعن قصد، تعرف أنه ينوي أن يتسبب لها بالمتاعب.. مع نيرو هذا ليس بالتهديد الفارغ.. واللؤم الذي نجح من خلاله بشحن الجو بينهما كان حقيقياً. في انكلترا كانت طباعه أسطورية.. لكنه هنا حيث الطباع الشرسة جزء من طباع الناس لن يجد نيرو رادعاً عن أي شيء يريد أن يفعله.. أحبطتها الفكرة فانزوت في مقعدها، تراقب الريف يمر بها.

تسلقت بهما السيارة إلى أعلى فأعلى.. فجأة رأت «مونت أتينا». كانت قمة البركان تبرز كرأس مخروطي الشكل، أزرق ضبابي في حرارة الشمس.. قمته لا تزال ملطخة بالثلج..

حول القمة، تلتف حقول التربة البركانية القاحلة الجرداء.. وانكمشت يارا في مقعدها، تجد المنظر مثيراً للتوتر وهي تفكر بمن دفن تحت ثوراته المتعددة.

سألها نيرو بصوت قاس بدون أن يلتفت:

- أتريدين أن تأكلي شيئاً؟

- كم نبعد بعد؟

- هناك في الأعلى.

شهقت:

- هذه هي روكا؟

ـ حيث ولدت.. هل تثير بك أية ذكريات؟

ـ لا.

ـ لكنك تبدين مرتعبة.

نظرت إلى الصخرة الرهيبة المرتفعة بشكل عمودي من الوادي وسط الريف غير المسكون.

ـ أنا خائفة فعلاً.. لم أكن أدرك أنها مرتفعة ومعزولة هكذا.. لا يمكن أن يكون هناك قرية قرية على بعد أميال وأميال.

ـ هذا صحيح.

ـ ولا تبدو لي مكاناً يريد أن يزوره أحد، فمن يقيم في النزل بحق الله؟ لن يكسب ريكي الكثير من المال بتأجير الغرف في مكان كهذا.

ـ هناك قلعة فرنسية نورماندية.. إلى اليمين، قرب الحافة.. إضافة إلى بعض الموزاييك الثمين من العصور الوسطى يزورها السواح دائماً، خصوصاً الإنكليز والإيطاليين.

ـ وأين تعيش أنت؟ لا أستطيع تصورك هنا في مكان منعزل مثل روكا.

ـ افهمي هذا يارا، روكا ليست مكاناً منعزلاً، إنها مختلفة.. والناس ليسوا متخلفين.. الصقليون مشهورون بذكائهم.. وأنا أعيش مع ريكي.

ـ آه.. إذن ستكون بين قدميّ!

ـ ليس إذا استطعت تجنب هذا.. سأجد صعوبة في التعبير عن إعجابي بجمالك من ذلك المكان.

ـ أنت مضجر نيرو.

استدارت السيارة إلى طريق ضيقة في دوران لا ينتهي تقشعر له الأبدان بين غابات من أشجار الآس الخضراء الشاحبة.. لا شيء على الطريق عدا سحلية هنا أو هناك تستحم في أشعة الشمس، تسرع هاربة من إطارات السيارة.

قال نيرو:

ـ لا تنسي.. روكا ليست أنيقة.

وكان هذا صحيحاً.. اتسعت عينا يارا وهما يقتربان، ورأت البيوت التي بدت وكأنها تنمو من جوانب الصخرة ذاتها.

بدخولهما القرية أخذت السيارة تهتز بغير ارتياح في الشوارع المرصوفة بالحجارة، ورأت يارا الشوارع خالية والأبواب موصدة، والنوافذ الخشبية الملتة بالغبار مفتوحة، والشرفات تكاد تنهار تحت ثقل سياجها الحديدي المشغول.

همست بارتياع:

ـ لا يسكن أحد هنا.. صحيح؟

ـ ليس هنا.. إنها مهجورة.. ألا ترين الدوائر الحمراء على الأبواب؟ إنها تعني أن البيوت غير آمنة، أخبريني عن انطباعك.

ـ إنها متجهمة، رمادية، مغبرة تبعث في النفس القنوط.

حاول نيرو تحضيرها لهذا، لكنها لم تكن تتوقع كل هذا.. هناك فسحة أصبحت دماراً كاملاً، البيوت القديمة بأسوارها التي تحيط بالفناء أصبحت خرائب لا نفع منها.. مجرد شوارع من مداخل البيوت الجميلة القديمة الطراز، الآن تقف وحدها لا تتقدم إلى أي مكان.

استدار إلى ساحة صغيرة مربعة:

ـ هل هناك تعليقات أخرى؟

في الساحة، كان هناك على الأقل بعض الحياة.. إذا كان بالإمكان وصفها بالحياة، عدد من الرجال في قبعات مسطحة وملابس تكاد تهترىء، كانوا يجلسون، يتحدثون في ظل الأشجار.. امرأتان شابتان، كانتا تجلسان على مقاعد خشبية تطرزان أغطية طاولات. وبضع كلاب بائسة المنظر تبحث عن طعام لها في القمامة، وامرأة في ثوب أسود تصعد درجاً شديد الانحدار تحمل سلة في يدها.

قالت بصراحة:

ـ لا تعجبني.. مع أنني أعتقد أن من الواجب أن تعجبني.. وأن أشعر بشيء من الدفء نحو موطني.. لكنني لا أشعر بشيء.. إنها غريبة منفرة.

ـ هذا ليس غريباً.

نزل من السيارة وسط الشارع تحت شجرة كستناء كبيرة مكملاً:

ـ لقد تربيت في مدينة كبيرة طوال حياتك.. وهذا عالم آخر.. تعالي.

نظرت حولها ولم تلاحظ أي نوع من الإعلان عن نزل:

ـ أيعيش ريكي هنا؟

ـ لا.. ولكننا لن نستطيع السير بالسيارة أكثر من هذا. إنه يعيش فوق، قرب الكنيسة والحصن.

ـ ألن تكون السيازة هنا في طريق غيرها؟

ـ إذا جاء أحد يمكنه الوقوف خلفي.

وضع نيرو حقيبتها على كتفه، والتقط حقيبته وسار أمامها نحو سلالم حجرية.

قالت بصوت منخفض:

ـ الرجال يتكلمون عنا.

ـ طبعاً.. لكنهم سيعرفون من أنت.

ـ وهل ستعود إلى نشر الشائعات مجدداً؟

قال ساخراً:

ـ وهل أنا من هذا النوع؟ سيعرفون بأنفسهم أنك لا يمكن أن تكوني صديقتي، لأنني لست أحمقاً إلى درجة أن أجيء بها إلى هنا.. ولا يمكن أن تكوني سكرتيرتي لأن أحداً منا لا يحمل أي شيء يشبه آلة طباعة أو كومبيوتر نقال.. وبما أنك تبدين شبيهة ريكي فأنت إذن توأمه، يعرفون أنه له توأم.

بدأت تجهد في تسلق الدرج الشديد الانحدار.

ـ لم أكن أعرف أنني أشبهه.. لطالما قال الناس إننا لا نتشابه.

ـ لديكما تشابه أكيد في الفم والعينين، وطريقة تحرككما.. وهم هنا مراقبون بارعون، سيلتقطون كل شيء.. أحياناً تقولان الشيء ذاته، تفكران ذات التفكير.. أتذكر ونحن صغار، كنت أذهب إلى كل منكما على حدة وكنتما تعطياني الرد ذاته كلمة كلمة. وكنت أجد هذا مذهلاً.. ها قد

وصلنا.

كانا قد وصلا قمة السلم الحجري العريض أخيراً ودخلا زقاقاً معتماً.. في نهايته رأت يارا شرفة يحيط بها سياج حديدي مزخرف على أطرافه شلالات من نبات زهري متعرش، وهذه كانت أول لمحة للألوان في القرية كلها. ثم دخلا «بنسيون روكا» عبر مدخل ضيق، ومرت لحظات قبل أن تتمكن يارا من الرؤية في الردهة المظلمة.

ـ أتريدين الاغتسال قليلاً، أم رؤية ريكي؟

أحست يارا بالارتجاف في داخلها:

ـ أريد رؤيته قبل كل شيء.

تمتم نيرو:

ـ لا تظهري هكذا.

ـ كيف أظهر؟

حاولت منع نفسها عن البكاء.. هذه ليست عادتها، لكن كل المشاعر الحائمة حول المكان جعلتها بائسة وخائبة الأمل.

كانت تفكر بما هو أبعد من الأمل، أن تكون القرية حيث ولدت أكثر جمالاً.. مكاناً يمكنها أن تحبه.. وكان هذا أكثر أهمية لها مما تظن.. بشجاعة قاومت تعاستها القاهرة وإحباطها، وامتدت يدا نيرو بلطف تمسكان ذراعيها.. وقال:

ـ لا تظهري وكأنك بحاجة الى كتف تبكين عليها.

كان اللطف في صوته، الحنان في عينيه، سبب خرابها.. وبدا لها أن نيرو يحبها حين تتصرف كطفلة.. إنها تظن أن هذا يعطيه إحساساً بالقوة والتفوق، ويذكره بتلك الأيام التي كانت فيها إحدى المعجبات العاشقات.. بؤسها منعها من قول شيء.. فهزت رأسها مستسلمة للأحاسيس التي تسللت من الأعماق إلى السطح.

بتنهيدة ساخطة ضمها نيرو بين ذراعيه، فوقفت متصلبة تحاول أن لا تستسلم. ريكي هو المريض، ويجب أن تبقى قوية. خاصة إذا كان من

المفترض أنها ستدير هذا المكان.

- مرحباً.

أجفلت للصوت الأنثوي، ورأت امرأة شابة نحيلة بشعر أشقر تقف عند أعلى السلم.

- ظننت أنني سمعت أصواتاً.. أنا هيلين.. أوه يارا رائع أن أراك!

لدهشتها، أمسكت وجه يارا بيدها وقبلتها بصوت مرتفع على خديها.. ثم قالت مؤنبة:

- نيرو.. قلت إن يارا جميلة كأنها ڤينوس. لكنك لم تقل إنها امرأتك.. سيكون ريكي سعيداً.. أليس كذلك؟ أوه.. يا إلهي!

بصيحة إحباط، تركتهما هيلين معاً تركض نحو مؤخرة المنزل، حيث كان يُسمع صوت غليان شيء ما على النار. وقال نيرو بهدوء:

- أظن من الأفضل أن نصعد لرؤية ريكي.

قالت يارا متجهمة:

- كي تستطيع جلاء سوء التفاهم هذا.

تمتم:

- كنت بين ذراعي، ويمكن القول إننا كنا ننظر بحنان إلى بعضنا.

تصلب ظهر يارا.. ووقفت وسط الدرج، دون التفكير بتأثير هذا التوقف. اصطدم نيرو بها وامتدت يداه آلياً لتلتفا حول خصرها.. لخيبة أملها، عادت هيلين في تلك اللحظة إلى الردهة لتشهد الحركة.. بوجه مشتعل، انتزعت يارا نفسها من قبضة نيرو وتابعت سيرها.

- ريكي؟

- أنا هنا يارا..! أنا هنا!

جاءها صوته المرح.. وفتحت الباب لتجده جالساً في مقعد قرب سرير كبير.. ركضت نحوه شاهقة ثم توقفت، تسأل بلهفة:

- لا أستطيع احتضانك.. هل أستطيع؟

ضحك ريكي:

- جربي.. لكن ليس بعنف.

قالت بصوت متكسر مخنوق في عنقه:

- أوه.. ريكي.. أظنني سأبكي!

- ستفسدين تبرجك.

قالت هيلين بابتهاج:

- ريكي.. يارا ونيرو يحبان بعضهما.. كثيراً.

ضحكت:

- إنهما يتعانقان طوال الوقت! رائع! أليس كذلك؟

كانت يارا على وشك أن تصحح معلومات زوجة أخيها حين رأت النظرة المحبة الرائعة على وجه ريكي، وهو يبعدها عنه بلطف ويبتسم لها بحنان.. ثم رأت كيف نظر إلى نيرو وكأن كل أحلامه تحققت.. عضت على شفتها تحاول التفكير بطريقة تحبط فيها أحلامه بخفة.

ابتسم نيرو وعيناه ترتاحان بتسامح على يارا المذهولة وقال:

- كان يجب أن تكون أختك ريكي.. أليس كذلك؟ حين شاهدنا بعضنا عرفنا معاً أننا من طينة واحدة، كان الأمر كمن يجد نصفه الآخر.. لكنك تعرف كل هذا.

قالت يارا:

- لكن.. نيرو.. أنا..

قاطعها نيرو بسرعة: هكذا ريكي..

وتقدم يمسك ذراع يارا بقبضة لم تستطع معها الحراك، أوحت لها أنه لن يقبل بإنكارها. ربما لم يقل لها عن مدى إعاقة ريكي ويفضل أن يكون توأمها سعيداً قدر المستطاع وأردف لريكي:

- ما رأيك؟

ربما كان يتصور أنه بوجوده الآن في بلاده يستطيع التصرف كذكر مغرور، ويجبرها أن تفعل ما يريد. حسناً، ولأجل ريكي.. ستبقى ساكتة.. لكن على نيرو أن يعي هذا الواقع ومن واجبه أن يصحح الأمور.

قال ريكي:

- لا بأس.. وأنا سعيد لرؤيتكما.

مال نيرو إلى ريكي يصافحه بحرارة ثم تعانق الرجلان كصديقين قديمين.. كان يبدو أن ريكي قد عاد صقلياً أكثر من الصقليين.

قالت لريكي وهي تركع أمامه على الأرض.

- قل لي كيف حالك؟

ابتسم مجيباً:

- أفضل حالاً لرؤيتك.. وأفضل حالاً اليوم على أي حال.. وأعتقد أنني قد أخرج لأتمشى قليلاً. نيرو، أيمكن أن تذهب مع هيلين لترتيب مكان نومكما؟

تنقلت عيناه بين نيرو ويارا بتساؤل، قال نيرو:

- سأستبقي غرفتي القديمة.. لكنني سأذهب مع هيلين ونتركككما تتكلمان.. هناك الكثير تبحثانه، كما أعتقد.

استعادت يارا وعيها من صدمة إيحاء ريكي بأن يضعها ونيرو في غرفة واحدة وسرت لأنها بقيت مع أخيها لوحدهما.. وتبادلت معه بعض الثرثرات حول أصدقائهما، ثم تحدث بتفاؤل عن مرضه. فقال:

- هناك أيام جيدة، وأخرى سيئة.. أحياناً أجد من السهولة أن أتحرك.. وتمر أوقات أشعر وكأنني في الجحيم.

صاحت ووجهها متجعد ألماً ولهفة:

- أوه.. ريكي.. يجب أن تدعني أقول لأبينا..

استوى في جلسته متوتراً:

- لا! لا يجب أن يأتي إلى هنا.. ولا أن يعرف أن نيرو هنا.. يارا عليك أن تكتمي السر، وهناك أسباب لهذا.

- أنت متورط في أحد مشاريع نيرو.. أليس كذلك؟

وضع يده على يدها:

- نحن نريد مساعدة القرية.. أهل روكا يريدون إزالة المباني المتصدعة

كي يستطيعوا الانتقال من البيوت التي أعطيت لهم.. هناك مجمعات سكنية حكومية حديثة في الجهة الشمالية للجبل تحت القلعة.

- بالتأكيد هي أفضل من هنا..

- يارا، هذا مكان ممتاز!

- أتحبه حقاً؟

- إنه بيتي، وبيت هيلين.. هناك بساطة حياة تريحني.. وأحس أنني مفيد على الأقل، أستطيع أن أساهم في العالم، وهذا ما يعطيني إحساساً جيداً.

- وأنت تنوي منع الناس عن المباني الحديثة مع كل تسهيلاتها وحداثتها، وإبقائهم هنا؟

- ما من أحد يريد الذهاب إلى هناك.. إنهم مستقرون هنا.. إنه موقع غير مناسب، كله مستنقعات وغير مستقر.. عدة مرات طافت البيوت بالسيول.

سألت بسخرية:

- ومن كان الأبله الذي بنى القرية الجديدة هناك؟

سحب ريكي يده ونظر إلى الأسفل مفكراً، ثم أجاب:

- رجل أعمال فاسد..

أحست يارا أنه يخفي عنها شيئاً.. كانت على وشك أن تسأله حين تكلم مرة أخرى:

- ظننتك أنك قد تزورينني قبل الآن.

احمر وجهها:

- لقد آلمت أبي.. وظننته سيصاب بنوبة قلبية.. كان منهك القوى كثيراً.. ولم أستطع المجيء إلى هنا رغماً عنه.. كنتما تعملان معاً.

- أوه.. أجل.. كيف كانت ردة فعله حين قلت له إنك قادمة؟ أرجو أن لا يكون مجيئك تعارض مع عمل كنت تقومين به لحسابه.

- حين قلت له إنك مريض ورأى كم كنت منزعجة لم يعد يستطيع منعي.. وكنت مضطرة إلى إرجاء مشروع لتمويل أحد مواقع البناء من بنك

الاستثمار الأوروبي.

- يبدو لي هذا مثيراً للاهتمام.. أخبريني عنه.

- يملك والدنا أرضاً مفرزة في كرونويل يريد أن يحولها إلى مركز استشفاء.. ومن المفروض أن أقنع أنا مسؤولاً رسمياً من المصرف يزورنا ليتحقق من المشروع أنه يستأهل استثمار الأموال فيه.

شيء ما في حركة ريكي أجفلها.. كان يتحرك دونما ارتياح في سريره، ولا دخل للألم في هذا.. حاولت فهم السبب ثم أحست بالتوتر في الجو.. التفتت لترى نيرو يقف بالباب يراقبهما.. فسألت بغضب:

- منذ متى وأنت هنا؟

- منذ فترة.

- وهل سمعت..

- سمعت عن مشروع أبيك الاحتيالي مع بنك الاستثمار.. أجل.

همست بشدة:

- كيف تجرؤ على قول هذا؟ أوه.. ريكي.. أستحق أفضل من هذا منك! لقد أوقعت بي، أليس كذلك؟ لقد حدثتك بكل ثقة.. نيرو، لا يمكنك بحث خطط أبي مع أحد..

- أليس من واجبي التأكد من أن والدك لا يقوم بأساليب ملتوية ليضغط على الرسميين ويقنعهم بمشاريعه؟ كل مشروع يجب أن يقيّم بإنصاف وبما يستحقه. الرشوة والفساد جريمتان خطيرتان.

- لا شيء من هذا له علاقة...

- لطالما اعتقدت أن الخدمات الأنثوية تساعد في إفساد المسؤول المسكين الذي نبحث أمره.

- خدمات أنثوية؟ كان من المفترض فقط أن أفتنه وآخذه إلى...

رد مقاطعاً:

- إلى الموقع ليراه ثم ليتفرج على المناظر؟

ومرّت عيناه المهينتان على قامتها، فقفزت واقفة:

- لا شيء من هذا! أنا لم أكن أنوي أبداً..

قاطعها نيرو بصوت قاسٍ:

- لكن والدك كان ينوي.

قالت متحدية نيرو:

- وكيف تعرف هذا بحق الجحيم؟

- لأنه فعل هذا من قبل.. وعدة مرات.. واستخدم الابتزاز ليبيع الأراضي بأسعار مرتفعة إلى الممولين الذين يعلمون سلفاً أن المشروع سيموله مصرف الاستثمار الأوروبي.. لكن الفارق الوحيد اليوم، أنه لم يستخدم ابنته بالتبني من قبل.. الآن على ما يبدو اقتنع بأنك صالحة لهكذا مهمة فاستغنى عن اللواتي استخدمهن في الماضي.

صاح ريكي: نيرو!

صعقت يارا ولم تستطع تصديق ما كان نيرو يقوله.. ثم استجمعت شجاعتها وحاولت منع نفسها من القفز إليه وتمزيق وجهه بأظافرها.. وقالت ساخرة:

- أنت تغار منه.. أنت ترى إلى أي مدى وصل والدي وتقارن نجاحه بشركتك البائسة الفاشلة.. ثم تختلق الأعذار لتبرير نجاحه فيما فشلت أنت فيه.. ولو كررت ما قلته لتوك أمام شخص آخر كائناً من كان.. فستقاضيك بتهمة التشهير وتأخذ منك كل بنس تملكه إلى أن تبيع ثيابك الأنيقة وترتدي الأسمال.. يا إلهي.. نيرو! لطالما كنت تحقد على والدي ولم أدرك حتى الآن كم أنك تكرهه!

تمتم نيرو:

- يا لهذا الاتفاق بأن نكون مهذبين تجاه بعضنا أمام ريكي.

- لن نستطيع هذا لأكثر من ثوانٍ.. أنت تسعى دائماً لإغاظتي بطريقة أو أخرى.. وتهجمك على أبي أمر لا يحتمل.. بعد كل ما فعله لأجلك.

رد بقسوة:

- أنت عمياء! ألا ترين ما كان يفعل طوال هذه السنوات؟ من تظنين

اشترى الموقع تحت القلعة منذ عشرين سنة؟ ماذا تعتقدين كان يفعل هنا وهو الصقر المفترس.. اسألي ريكي.. اسأليه كيف ضغط وأجبر القرويين على قبول بيوت لا يريدونها.

استدار رأس يارا إلى أخيها.. كانت عيناه منكمشتان بقوة وكان يتألم. ثلاثت ثورة غضبها على نيرو بالمقارنة مع الإشفاق الذي طغى على قلبها لأجل توأمها.

تأوهت تمسك يده المرتجفة:

ـ أوه ريكي.. لقد كدرناك.. أنا آسفة.. لا يجب أن نتشاجر أمامك.

تمتم ريكي بصوت متهدج:

ـ الأفضل أن تفعلا هذا بدلاً من الاستمرار في الشجار خلف ظهري.. يارا، يجب أن تصدقي نيرو.. والدنا كان في صقلية يحاول عقد صفقات مربية.. والمباني السكنية الجديدة شاهد على نجاحه.

ـ ربما لم يكن يعرف شيئاً عن الموقع، وربما كان يحاول المساعدة.. على أي حال، لقد تبنانا، ألم يفعل؟ كان هذا دليلاً على طيبته وعلى رقة قلبه وأنه شخص لديه إحساس مرهف ومشاعر إنسانية.. لا يمكنك الإنكار بأن تبني ثلاثة أيتام من قرية فقيرة في صقلية وإعطاءهم بيتاً وحياة كريمة لا يتطلب رجلاً كريم الأخلاق..

نظر ريكي إلى نيرو بعجز وقال: نيرو؟

قال نيرو متجهماً: الغداء جاهز.

واختفى نزولاً على السلم.

تنهدت يارا ساخطة.. لكن أكان نيرو يحاول التملص منها أم لا فستصل إلى لب هذا الموضوع.

سألها ريكي بلهفة:

ـ لن تغادري الآن.. أليس كذلك؟

ابتسمت له بحزن:

ـ لا.. أعتقد أن أمامنا نحن الثلاثة أشياء عديدة نتبادل الآراء فيها.

ـ بإمكانك مساعدة روكا يارا.. أنت ذكية بما يكفي لشق طريقك عبر الروتين الحكومي.. ومكتبي مليء بالأوراق.

ـ لكنني لا أعرف لغة البلاد.

ـ يمكنني أن أترجم وأنت تقدمين النصح.. لطالما كنت أكثر ذكاء مني.. أذكر كيف كنت لوحدك تواجهين نيرو، إهانة بإهانة، وفكاهة بفكاهة.

قالت بلطف تستخدم إحدى حيل نيرو للتهرب:

ـ الأفضل أن ننزل لتناول الغداء.

قدمت هيلين نوعاً من المعجنات مع السردين.. وتناولوا الطعام في الفناء الخلفي الصغير تحت عريشة عنب ظليلة، ولم يبدُ على هيلين أنها سمعت الأصوات المرتفعة من غرفة ريكي أو أنها سمعت وسكتت.. وتحدثوا حديثاً عادياً.. سرعان ما أحست يارا بالنعاس وأحست بكل أطرافها تتراخى.

وقالت هيلين:

ـ حان وقت القيلولة..

وقفت يارا بجهد.

ـ يجب أن أفرغ حقائبي.

ساعدت هيلين بتنظيف المائدة ثم صعدت إلى غرفتها.

أدركت أن نيرو سيغتنم الفرصة لرؤيتها على انفراد، لذا لم تندهش حين سمعت طرقاً على الباب.

قالت بدون أن تستدير:

ـ أدخل نيرو..

إذا أردت الرحيل يمكنني إيصالك إلى بالرمو هذه الليلة.

أخذت يارا تتنقل من السرير إلى الخزانة تعلق ملابسها.. ثم سألت:

ـ ولماذا أريد الرحيل؟

ـ لأنك تكرهين المكان هنا.. ولأنني نذل بالنسبة لك.

حاول مساعدتها بإعطائها بعض الملابس الدانتيل.. فقالت بهشاشة:

- أبعد يديك عن ملابسي الداخلية . . آسفة نيرو . . لكن لو أردتني أن أرحل، فاعلم أن رغبتك ستزيدني تصميماً على البقاء . . لقد طلب ريكي مني المساعدة .

- هذه ليست فكرة جيدة . سيقول إنه يحتاج إلى مهارتك، لكن يجب أن ينجح بدونك وبدون أبيك كما قلت لك من قبل .

- لكنك قلت كذلك إنه لن يستطيع تدبير أمره لوحده وإنه ليس قوياً بما يكفي، ملمحاً أنني أنا القادرة .

- دعي كل هذا لي .

قالت مفكرة بخبث :

- سنعود إلى الرقص على وقع أنغامك، أليس كذلك؟ أنت تدير الأمور بحيث يعتقد ريكي أنه يحقق المعجزات وحده . . وتريد التأكد أنني لن أبقى كي لا أؤثر عليه عكس ما تريد . . ولسبب ما أنت مصمم على لعب دور من وراء المسرح وتفعل كل ما تريد في مسألة تطوير القرية .

وانتهى فكرة فتابعت حديثها :

- قل لي هل تخطط لاستخدام شركتك للقيام بالعمل؟

- شركتي صغيرة جداً .

ارتفعت عيناها إليه :

- هذا صحيح . . لكنك تستطيع الانضمام إلى شركة أخرى، فهل تفكر بأخذ حصة ريكي في شركتنا؟

- لا . . أنا لا أفكر بهذا .

لكن يارا لم تكن واثقة . . فقد بدا لها مصمماً على الخلاص منها، ومسروراً بنفسه لهذا . . ولماذا يلزم رجل محنك له تجاربه، قرية بسيطة مثل روكا؟ لماذا يقيم مع ريكي وكأنه يجعل من نفسه شخصاً لا يمكن الاستغناء عنه؟

قالت تتهمه :

- أنت تخطط لشيء ما . . أعرف هذا وأنا متأكدة .

ابتسم بغرابة :

- أجل . . هذا صحيح . . وأنت لن تمنعيني .

رفعت يارا وجهها، تنظر إليه بتكبر :

- سنرى! الأيام بيننا .

التوى فمه سخرية وأمسكها من ذراعها بقوة قائلاً :

- أنسيت أنك تتعاملين مع سيد الخداع والمراوغة؟ أنا لدي الانتقام والتصميم لتنفيذ كل مخططاتي ومآربي مهما كانت . . ولن أسمح لأحد أي كان أن يقف في طريقي . أفهمت؟

***

٦ ـ وحدهما والقمر

فجأة لم تعد الغرفة دافئة.. ضرب برد شديد ظهر يارا فأخذ ينتشر في دمها.

قالت بصوت أجش:

ـ أنت تهددني مرة أخرى؟

هز رأسه صامتاً، بدون أن يكسر التوتر الخطير. فتابعت تسأل بجرأة:

ـ ماذا ستفعل بي؟

نظرته الساخرة إليها جعلت أعصابها ترتد خوفاً.. وأحست وكأنها حشرة يسعى لإبادتها.

أخيراً تمتم:

ـ سأجد طريقة تعطيني أقصى لذة ممكنة.

لاحظت كم بدا فجأة مثيراً ومفترساً.. في أعماقها عشرات النبضات تفجرت... إنه يعني إجبارها على الخضوع له.. في حال تدخلت في خططه.. وتمتمت رداً:

ـ وهذا بدوره سيعطيني أقل متعة يمكن أن أتصورها.

ارتفع حاجبه بشكل يعني أنه لا يصدق كلمة مما تقوله، وأجاب ساخراً وهو يتجه إلى الباب:

ـ لا.. هذا غير صحيح، وهو ما سيفاجئك حتماً..

التقطت قازة زهور مهددة، لكنها سمعت ضحكته عبر الممر.. فرمت القازة البشعة إلى الجدار، تحس بالرضى وهي تتحطم إلى أجزاء مبعثرة.. لن

تكون هذه المعركة بينهما سهلة.. وإذا كانت تريد الانتقام لاسم أبيها وأن تبرهن لريكي أن نيرو على خطأ، يجب أن تخطط جيداً لما ستفعل.

كانت يارا أكثر توتراً من أن تنام خلال فترة القيلولة، حين وجدت أن أفكارها تدور وتدور في رأسها خرجت لتجلس في غرفة الاستقبال المظلمة، فالطقس حار جداً.

هنا المكان بارد، لكنها ابتأست لمظاهر الفقر حولها.. كانت حشوة شعر الجياد تبرز ناتئة من تحت جلد الأريكة.. وعلى الجدار فوق الهاتف لوحة رخيصة لصبي في زي الفرسان، والقماش يبدو رثاً ومهترئاً في العديد من أطرافه.

لا شك أن أحوال ريكي المالية صعبة جداً.. لفترة ما جلست هناك تحاول قراءة كتاب اشترته في المطار، لكنها لم تستطع أن تركز.. أخيراً سمعت صوت خطوات نيرو الخفيفة السريعة على السلم فرفعت رأسها لتراه منتعشاً ينضح نشاطاً.

قالت بلهجة الأمر: نيرو!

ـ هذا صحيح حزرت.. ! علامة كاملة!

ـ انتظر.. ! أريد طرح سؤال عليك!

ـ حسن جداً.

استدار على عقبيه ليواجهها.. صورة سوداء منعكسة أمام النور البرّاق خلفه.. بالنسبة لها، عرض كتفيه والوقفة التي يقفها بدتا شريرتين تثيران الأعصاب.. وتساءلت ما إذا كانت قادرة على مواجهته.. إنه كاذب طوال حياته.. كان يحقق انتقامه ببطء منذ نعومة أظفاره.

قالت بحركة محتقرة للأثاث الرخيص:

ـ هذا المكان رهيب.. لماذا يعيش ريكي هنا؟ لا يمكن أن يكون قد صرف ماله كله في مشاريع القرية.

ـ بالضبط هذا ما فعله.. وهذا كله من «دوطة» هيلين. ريكي ليس لديه شيء.. ثم هو مصمم أن يعيش مثل بقية أهل روكا ويكسب ثقتهم

واحترامهم.

سألت بذهول:

ـ بالعيش كالمعوزين؟

ـ هذه هي الفكرة.. هناك منزل في روكا السفلى مخصص لعمدة البلدة لكنه يرفضه.. قلت له إنه سيكسب الاحترام إذا تصرف كرجل ثري، لكنه لم يصغ إلي.

قالت بكبرياء:

ـ لدى ريكي مبادىء.

ـ والقليل من التفهم للصقليين.. إنهم يعبدون الناجحين.. أوه.. إنهم مؤمنون أنه شريف ووثقوا به لعمل لم يرغب أحد غيره فيه.. لكن لاحظي الفارق في ردة الفعل حين يخرج هو، وحين أخرج أنا.. إنهم ينفذون أوامري بطاعة عمياء حين أطلب شيئاً.. أما بالنسبة لريكي، فهم ينقسمون ويرفضون الانصياع تكبراً.

قطبت يارا مستغربة كلام نيرو: ماذا تعني؟

ـ أعني.. أعني.. في الحقيقة أنا أعرف الأسباب لكنني لن أقول لك.

قالت ساخطة تتهمه:

ـ إنهم يتحركون لتلبية أوامرك خوفاً بسبب علاقاتك بالعصابات.

ابتسم نيرو:

ـ ربما.

ثم ذهب تاركاً يارا ترغي وتزبد، ثم تقضي ساعتين تقرأ صفحات كتابها.. وقت العشاء ألقى ريكي قنبلة عليها.. فقد توسلت إليه أن يدعها تطلب العون من والدها، وهي واثقة أنه لا يعرف شيئاً عن سوء حالة موقع «روكا السفلى» وأنه قد يرغب في التعويض عن الغلطة.

قال نيرو ببرود:

ـ لو وضع مارتن غارينتي قدمه في صقلية، فلسوف يُقتل قبل أن يضع الأخرى.

ـ على يد رجالك، كما أعتقد.. أحياناً أتساءل عما إذا كنت لا تزال طفلاً نيرو، تلعب لعبة الشرطي واللص.. أعتقد أن كل هذه التهديدات الشريرة هي مجرد وسيلة لجعل الناس تخاف منك كي يفعلوا ما تطلبه منهم.

رد نيرو وعضلات وجهه مشدودة:

ـ حاولي وسترين.. ريكي أخبرها عن وصولك إلى هنا.

قال ريكي بهدوء:

ـ هذا صحيح يارا.. إنهم يكرهون الاسم الذي نحمله، فما إن أوقفت سيارتي المستأجرة في الساحة حتى حطمتها الحجارة.. حين خرجت منها بصقوا علي وبدأوا يدورون حولي، ولولا وصول نيرو في الوقت المناسب لكنت تلقيت ضرباً مبرحاً.. إنهم يعملون على أساس نوع من البرقيات التي ترسل عبر الأدغال.. ولا أستطيع معرفة كيف عرفوا من أنا.

قالت يارا، تلتقي عيناها بعيني نيرو:

ـ أوه.. أنا أستطيع أن أعرف.. ريكي. لم يعترض أحد حين طلبت ود هيلين.. وهم لا يتصرفون بشكل سيء ضدك الآن.. فهل هذا من صنع نيرو؟ ألهذا لم يرجمني أحد؟

رد ريكي نافد الصبر:

ـ طبعاً، يارا.. يجب أن تتوقفي عن الشك بدوافع نيرو.. إنه لا يفكر سوى بمصلحة «روكا».

ـ إذن فهو لن يمانع في أن نتخذ أنا وأنت قراراً موحداً لأول مرة.. وأن نقرر استخدام شركة البناء لتقوم بعرض أسعار منخفضة الكلفة للعمل هنا.

ساد صمت مرتبك أطول مما توقعت.. ببطء أخذ رأسها يتنقل من نيرو إلى ريكي ثم إلى هيلين.. وكان نيرو ينظر دونما اكتراث إلى طبقه يقطع اللحم. ثم سألت وقد أذهلها الصمت المميت:

ـ ما الأمر؟ ماذا قلت؟

لماذا يحبس الجميع أنفاسه؟

قال ريكي بسرعة:

- لا شيء.. رائعة هذه البطاطا هيلين..

صاحت يارا بحدة:

- لا تعاملني كبلهاء..! أكرر: ما الأمر؟

لاك ريكي شفته ونظر إلى نيرو الذي رفع حاجبه وهز كتفيه.. فقال ريكي:

- ليس لي قدرتك على إخفاء الأمور نيرو.. يارا يجب أن أقول لك إنني وبسبب مرضي وارتباكي بهذا الخصوص، بعتُ حصتي في الشركة لنيرو.

صاحت: ماذا فعلت؟

حذرها نيرو:

- حافظي على هدوئك!

- لا.. لن أحافظ على هدوئي أبداً! ريكي.. كيف فعلت هذا؟

- كنت أحتاج إلى المال، كبداية.. ودفع لي ثمناً جيداً.. اسمعي يارا.. بإمكانه فعل الأعاجيب بالشركة وأكثر إذا قررت بيع حصتك له. يمكنه ضم الشركتين والقيام بتوفير كبير في التكاليف.. حتى أنه ربما.. حسناً.. لديه بضع خطط.

نزلت الحقيقة على رأس يارا كالصاعقة.. إنه يخطط لخداع ما..

- أوه.. فهمت.

ابتسم ريكي:

- هذا أمر مريح.. لا يمكن للأمور أن تنجح بأفضل من هذا.. أليس كذلك؟

أخذ كلاهما يحكان ظهريهما في آن واحد ومكان واحد.. وضحكا معاً بخشونة.. ورأت يارا أن خطوط اللهفة اختفت عن وجهه.. ولم يكن لديها قلب يوافقها على أن تقول له ما هي حقيقة أفكارها.. ستكون المعركة بينها وبين نيرو ولن تورط ريكي فيها.

قالت بحبور: بالتأكيد.

رمت ابتسامة قسرية نحو نيرو وأجبرت نفسها على إكمال الطعام..

تصغي بثورة إلى الحديث المرتكز على أفكار نيرو بالنسبة لشركة المباني التي كانت تظنها ملكاً لها ولأخيها. الآن ستكون الشراكة مختلفة.. حسناً سوف ترى في أمر هذا.

قالت بلهجة كالعسل:

- نيرو.. أظنني أسأت الحكم عليك.. فهل تسامحني؟

قال بهدوء:

- أنا أسامح كل من يعتذر بصدق.

أعجبت يارا برده.. لكنها كانت لا تزال تكرهه.

- أحب أن أتمشى حتى القلعة.. هل تتمشى معي وتدلني على الطريق كبادرة صداقة؟ سيكون المكان رومانسياً جداً لنا لنتشاجر فيه، أليس كذلك؟

وضعت يدها على ذراعه ونظرت إلى عينيه.

تمتم وبريق السخرية في عينيه:

- هذا صحيح.. لكن، علينا المساعدة في غسل الصحون أولاً..

قالت هيلين بلطف:

- نيرو.. أنت لست لطيفاً! لا غسيل للصحون الليلة.. خذ يارا لترى ضوء القمر.. أليست حبيبة قلبك؟

فكرت يارا بمرارة: ليس له قلب! ما عدا الذي يجاهر به كذباً.. مسح نيرو فمه بالمنديل ونظر إليها بعينين سوداوين من تحت حاجبين منخفضين.

- إذا كان هذا ما تريدين.. ألا تخافين من الظلام؟

تلاشت ابتسامتها قليلاً.. إنها تخاف من الظلام وبشكل رهيب، وهو يعرف هذا.. فلطالما تسلل إلى غرفتها ليعيد إضاءة الفانوس الليلي حين ينطفىء وكان يسمعها تبكي خوفاً.

قالت: ليس وأنت معي.

- حسناً.. هناك قمر.. فهل أنت على استعداد للمخاطرة؟ إنه قمر صيادين!

ابتسمت مجدداً.. لقد ظن فعلاً أنها تريد نزهة رومانسية معه في العتمة..

وسرعان ما سيعرف غلطته.

قالت بصوت حنون وهي تمسك يد نيرو:

- فلنذهب إذن، ونرى ما إذا كان هناك صيادين أم لا.

سارا معاً كعاشقين عبر شارع شديد الضيق بحيث أن ضوء القمر لم يتمكن من الوصول إليه.. في الظلام الدامس التفت ذراع نيرو القوية بحزم حول خصرها ليساعدها على السير فوق الحجارة المربعة السوداء التي رصفت بها الطريق.. بأسى، فكرت إذا كان بالإمكان أن تفعل هذا مع حبيب حقيقي.. بدلاً من هذا المنافق المخادع.

مالت برأسها إلى جانب واحد وأصغت.. على مقربة، سمعت ضحكاً وموسيقى.. وقال نيرو يفسر حركتها:

- الجميع في «البياتزا» لأجل «الباساجياتا».

- وما هذه؟

- الاستعراض الليلي.. الرجال يستعرضون النساء، النساء يستعرضن أزياء بعضهن البعض.. الصبيان يتغازلون عن بُعد مع فتيات لم يلمسهن أحد. العجائز من رجال ونساء يبدون الإعجاب بالأطفال، ويبحثون أمور الطعام والغذاء.. إنها نوع من الاحتفالات اليومية، الجميع في القرية عائلة واحدة.

- هذه مسرحية متسلسلة حقيقية.

- وفي صقلية هي أكثر تشدداً وأكثر حيوية ومتعة من أية مسرحية.. في معظم القرى، في كل أنحاء إيطاليا، يجري مثلها الآن.. الناس ينهون أعمالهم في وقت متأخر حوالى السابعة أو الثامنة.. ويجب أن تري بأم عينك الاستعجال في كل أنحاء المدينة قبل التجمع، كي تصدقي؟

هزت رأسها باهتمام وأكملا السير في جو الليل الدافيء.. كانت يارا لا تزال تفكر كم يمكن لها أن تتمادى لتبرهن لنيرو أنه جعل منها عدواً لا يمكن الاستهانة به.

قالت متأثرة بالفعل:

- إنها قلعة رائعة.

كانت الحجارة بلون أبيض قاتم، برجها المتسع ملفوف برباطات من حديد، على الأرجح للحفاظ عليه قائماً.. قادها نيرو عبر نفق مهدم حيث أطلت من فوق خندق صخري عميق.

- كم يبلغ ارتفاعنا عن الوادي؟

- حوالى الثلاثة آلاف قدم حتى ذلك الحرف.. ثم هناك حوالى الخمسماية قدم قبل قعر الوادي، أمر مهيب.. أليس كذلك؟

برقت أنوار صغيرة من مكان بعيد في الأسفل، وعرفت يارا أن هذه لا بد أن تكون المباني الجديدة. كان المنظر وكأنها تتطلع من طائرة، وهي على ارتفاع شاهق.. قالت بحبور تتحضر: والآن؟

داعبت يده كتفها:

- الآن.. سنستغل خلوتنا.

أدارها لتواجهه، فقالت بلهفة:

- نيرو.. قل لي.. فكرة من كانت مجيئي إلى صقلية؟

دعك جبينه وكأنه يحاول أن يتذكر، لكن يارا لم تنخدع.. وسأل ببراءة:

- أولم تصري أنت على المجيء؟

ابتسمت مبقية عينيها إلى الأسفل تتلاعب مستفزة بأزرار قميصه:

- لقد طلب منك ريكي أن تأتي بي إلى هنا.. ألم يفعل؟ وتظاهرت أنك لا تريد أن أجيء، أليس كذلك؟ وأنت تعلم جيداً أنني سأفعل عكس ما تقول؟ أنت ماكر بشكل يثير السخط.. نيرو.

أصبح صوتها مبحوحاً.. ولم تقصد ذلك.

جذبها إليه بلطف فتذكرت طعم شجارهما صباحاً.. وهمست لنفسها: يبدو أنه يستعد لمعركة جديدة.

تمتم، وهو يهم بمعانقتها:

- ماذا يهم، طالما أنت هنا معي؟

ابتعدت عنه تجنباً لعناقه وقالت بصوت مرتفع:

ـ كشركاء.. أتدرك أننا شركاء؟ أكان في نيتك ترك ريكي يقنعني بالتخلي عن حصتي لك؟ هل لهذا السبب أردتني هنا؟

ـ يارا!!

ـ انصحني، نيرو.. ماذا سنفعل بالشركة؟ هل أبيعها لك؟

أجفل نيرو وابتسمت له عابثة. وسألت:

ـ ماذا ستفعل بها لو كانت لك؟

ارتجف نيرو قليلاً لأن يدها تسللت إلى وجهه تداعبه فقال لها:

ـ سأفعل ما يفعل أي إنسان عادة بشركة مباني.. أنا لا ألعب دوراً يومياً من أي نوع، بل أترك هذا الجانب للمديرين الإداريين.. وظيفتي هي التوقيع على الشيكات.

هزت اصبعها في وجهه مداعبة:

ـ أنت لست صادقاً معي.

ـ ولست كاذباً. لا بد أنك تعرفين الآن أنني لا أناقش خططي مع أحد.

فكرت يارا بسرعة.. الطريقة الوحيدة للتعامل مع حيوان ماكر هو نصب فخ له.. وعليها محاربة المكر بالمكر.. وتعرف جيداً ما يمكن أن تستخدمه كطعم... الطعم الوحيد الذي لا يمكنه أن يقاومه.. الإغواء.

ضحكت ضحكة منخفضة خشنة:

ـ ولا حتى مع المرأة التي تريدها؟

بدأ قلبها يخفق بشدة، النبض تحت أذنيها يكاد يصمهما.

توقف نيرو عن التنفس.. ولم تستطع يارا معرفة ما إذا كانت قادرة على المضي في خطتها.. إلا أنها قررت المخاطرة بالإذلال كي تخدعه.. ستستخدم كل إرادتها، كل وسائل الإقناع المتوفرة لتصل إلى معرفة أسباب سيطرة نيرو فوغارتي غير العادية على ريكي.. هناك خطة واسعة دنيئة وراء كل هذا، وهي مقتنعة برأيها.

قال:

ـ ظننتك قلتِ...

وتلاشى صوته، ثم وقفت يارا على أطراف أصابع قدميها وقالت هامسة:

ـ حسناً.. قد نبقى، أنت وأنا، هنا لأسبوع أو يزيد، ولا أعرف عنك شيئاً، لكنه وقت طويل بالنسبة لي كي أكون دون...

وقررت ترك بقية الكلام، وأعطته نظرة حرد لها معنى.. من المذهل ما يستطيع المرء أن يفعله بعينيه.

مع ذلك لم يستجب.. وبدأت تشك في قدرتها على النجاح.. وهمست:

ـ أوه.. نيرو.. ألا تظن أننا خلقنا لبعضنا؟

رد هامساً:

ـ منذ بداية الزمن.

لقد نجحت.. وأحست بالانتصار وهي تسمع العذاب في صوته.. سرعان ما سيفضي إليها بكل شيء، وستعرف كل ما تريد معرفته، إضافة إلى هذا، ستكون لها لذة جعله يعرف معنى النبذ ولو لمرة واحدة، كنوع من الانتقام لكل صديقاتها.

لكن، وبشكل غريب، لم يعطها هذا التصور اللذة التي توقعتها.. ووجدت من الصعوبة أن تتذكر وهي بين ذراعيه ماذا يفترض بها أن تفعل بعد أن أسرت نيرو المراوغ، ستحتاج إلى كل قوتها لتتمسك به وتبقيه عند حده.. والشيء ذاته ينطبق عليها.. فيداه كانتا تحيطان بها بجرأة متزايدة.

تساءلت يارا ما إذا كان دمها الصقلي عاد ليندفع في عروقها.. فهي تعرف بالغريزة أنها لا يجب أن تجعل أي علاقة واضحة بين تشجيعها لنيرو، وبين خطط عمله المستقبلية، هذه الليلة.

نيرو سيد هذه اللعبة، وهي المبتدئة الحديثة العهد بها.. لكنه لا يتوقع أن تكون مخادعة.. نظرت حولها بقلق: نيرو!

قال:

ـ لا أحد هنا، نحن فقط والهزارات، وضوء القمر.

وتحملت بعذاب عناقه لها.. تحملت بكل ما استطاعته للمحافظة على

وعيها.

تمتم:

ـ ما أجملك، أنت رائعة ورائحتك.. همم.. لست متأكداً..

رفع نظره إلى عينيها، وأكمل:

ـ أنت امرأة.. بكل ما في الكلمة من معنى.

لم تستطع أن تتكلم.. وأخذت يده تداعب رأسها، ثم دفع يديه الاثنتين في شعرها، فتراجع رأسها باستسلام.

فقال من بين أنفاسه:

ـ حبيبتي! هكذا تصورت الموقف دائماً.. أنت وأنا.. لوحدنا في العتمة.

تصلبت فقد استشفت من كلامه السخرية.. وقطب نيرو، يلامس خدها وعنقها، فعرفت أنها لن تستطيع إيقافه بعد قليل.

لم تكن راغبة في الرفض.. لكنها يجب أن ترفض.. ربما في آخر لحظة يمكن أن تتظاهر بألم ما، وجع في معدتها مثلاً..

ضحك نيرو بلطف وحاول دفعها إلى الأرض، لكنها قاومت، عيناها مسودتان خوفاً. على الفور، رأت تغييراً مذهلاً فيه.. محاولات إقناعه المجازفة، الساخرة تقريباً.. انقلبت إلى اهتمام منفتح.. وسأل بهدوء:

ـ السبب هو روكا.. أليس كذلك؟ لقد بدأت تتذكرين.. حبيبتي المسكينة يارا. أظن أن كل شيء سيعود إليك بعد قليل.. أفهم أنك مرتبكة.

عض شفته قليلاً، ورأت أنه يحاول السيطرة على نفسه.. ثم قال:

ـ هل نعود..؟ يمكن أن نشرب القهوة مع ريكي وزوجته.

التفت ذراعه بطريقة ودية حول كتفيها. حين وصلا إلى الزقاق المعتم توقف وضمها بين ذراعيه حتى أنها أحست برغبة في البكاء.

ـ لا تكوني متكدرة حبيبتي.

رفرفت رموشها لتخفي اتساع عينيها، هناك شيء مخيف في القرية بعد أن دخل الجميع إلى بيوتهم وساد الصمت. سرت قشعريرة في جسمها وأحست

أنهما مراقبان، فأخذت تتطلع بلهفة من فوق كتفيه، لكنها لم ترَ سوى الظلام المتجهم المخيف.

سألت بصوت نصف هستيري:

ـ ماذا هناك في هذا المكان؟ نيرو.. ماذا حدث لي هنا؟

داعبت أنامله جبينها:

ـ ستتذكرين.. ستتذكرين.

وهما عائدان، أقلقها أنها كادت تقنع نفسها أنه مهتم فعلاً بها.

خلال الأيام القليلة التي تلت، لم تر نيرو كثيراً، فبعد مخابرة هاتفية طويلة في الصباح التالي، أعلن أنه سيطير إلى اللوكسمبورغ بعد ظهر ذلك اليوم، وقال ليارا:

ـ لا تظهري خائبة الأمل هكذا حبيبتي!

احمر وجهها.. لا شك أن مشاعرها شفافة أكثر مما تظن.. لكن خيبة أملها سببها بالتأكيد إخفاقها في أن تنتزع شيئاً من أسراره. رغم هذا أحست يارا برعشة حرارة دافئة تتدفق في شرايينها. وقالت تدعي البراءة:

ـ لكنني محبطة.. لن يكون هناك من يقدم الطعام حين يصل الضيوف.

ضحك ريكي:

ـ نيرو ممنوع من دخول غرفة الطعام منذ زمن بعيد.. منذ أن جئنا إلى هنا. لقد كانت هيلين عنيدة جداً معه.. ولم أره يعاقب هكذا من قبل.. فهو دائماً كان يصر على المبالغة في الانفعال لو حاول أحد أن يأمره.

ابتسمت يارا:

ـ أتعني أنه كان يفقد أعصابه ويهاجمهم؟

صاح ريكي:

ـ ليته كان يفعل هذا! لا.. كان يصبح متذللاً، ينحني ويتراجع القهقرى، ويتعثر في الأثاث بطريقة مخزية ويداه ترتجفان..

قال نيرو باعتداد بالنفس، عيناه تتراقصان مرحاً:

ـ لكنهم توقفوا عن التسلط..

ضحكت هيلين:

- يا لك من رجل ماكر.

قالت يارا:

- أجل.. أنت على حق.. إنه كذلك، بل الواقع أنه ماكر مزدوج فقد تفادى بهذا مهمة صعبة عليه.

احتج نيرو:

- أوه.. لكنني أحببت العمل كساقي.. أعطاني هذا فرصة لأكون قذراً.

ضحك ريكي:

- أعتقد أن الضيوف وجدوني وديعاً بعد مآثر نيرو.. لكن، على أي حال، كل رجل يمكن أن يبدو وديعاً بعد نيرو.. ولا داعي لأخبرك بهذا يارا.. فمن الإثارة أن يكون المرء معه.

رفعت يارا عينيها إلى السماء:

- يا للسماء! لا تمدحه هكذا.. فيزداد غروره.

قال ريكي بإعجاب:

- كم أحبكما حين تتغزلان ببعضكما.. وأنا سعيد جداً لأنكما سويتما خلافاتكما.. لكن عليك تعلم فن المديح إذا كنت ستبقين هنا لتصبحي صقلية حقيقية.

ابتسمت له بضعف.. ريكي يدفعها كما حذرها نيرو، فكيف تقول له إنها تكره المكان؟

- أنا لا أمدح إلا وقت الضرورة.

قالت هيلين:

- نيرو.. أعط يارا دروساً.

- في ماذا؟ إنها تعرف كل شيء.

قالت هيلين:

- في المديح.. إنه جيد في هذا. وكلامه جميل.. يجعلك سعيدة،

ومبتسمة.

تمتم نيرو ينظر بمحبة في عيني يارا:

- نحن نعتقد أن المديح يزيد جمال الحياة، وهو يجعل الناس يشعرون أنهم مرغوبون.. بدلاً من النظر إلى الأمر وكأنه وسيلة تزلف كريهة. نحن نؤمن أنها وسيلة سعادة، هكذا نمدح جمال طفل، وأمه تبتسم برضى، والطفل يستجيب بسعادة، نقول كم تبدو سيدة مسنة، شابة بشكل غير معقول، فتسير بخطوات رشيقة وتشعر أنها أفضل حالاً. حتى أننا نقول لشخص ما، إن أحداً من قبل لم يصب بمثل هذا الرشح المروع وكأن الشجاعة تدب في أوصاله فيشفى من مرضه.. وهذا أمر مرح يعطي الصحة والسعادة للجميع.. المبالغة هي في طبيعتنا.. وفي طبيعتك يارا.. في مكان ما.

ردت بلطف:

- لا أعتقد هذا.. لكنه سيساعدني على فهم تصرفكم أكثر.

نظر إليها بارتياب:

- أنا مسرور جداً.

رفعت ذقنها مؤكدة:

- الآن لن أصدق كل شيء تقوله لي..

ضحك ريكي:

- ما قيمة تفاهاتك الحلوة الآن، نيرو؟

- إنها لا تساوي ثمن الحبر المستخدم في كتابتها، كما يبدو.

أمسك يد يارا يقبل راحتها، وعيناه تغمزان لها. فقالت بفتور:

- يا لك من مخادع فاتن.

بما أن ريكي سعيد لتطاير شرارات المرح بينهما. وكان على يارا أن تعترف أن نيرو هو الذي يحرك المكان، وهو الذي يجعل كل شيء يبدو أكثر إشراقاً، خاصة ريكي الذي أصبح يبدو أفضل حالاً بكثير، ويمضي أكثر وقته خارج السرير.

ذلك اليوم، وبعد وداع طويل حميم ومحرج مع نيرو أمام أنظار الجميع في

الساحة، عادت لتبحث أمر إدارة البنسيون مع هيلين. وبمساعدة عدة مسافرين وصلوا لقضاء بضعة أيام، حاولت زوجة أخيها أن تُظهر لها سهولة إدارة المكان.

لكن المنزل كان ينقصه الكثير من التسهيلات المعيشية المعتادة عليها: كالسخان، وغسالة الصحون، وثلاجة اللحوم.. كان عليها أن تطبخ، تطبخ حقاً، وأن تفسد شكل وطلاء أظافرها وهي تغسل وتتسوق يومياً ولم يساعدها في ذلك أحد، وما أزعجها حقاً هو التصرف المريب للقرويين وواقع أنها لا تتكلم الإيطالية، هذا عدا اللهجة المحلية الثقيلة.

حين غادرت هيلين أخيراً لزيارة أهلها، غمر يارا إحساس عدم الملاءمة.. طوال حياتها كانت ناجحة، عدا ما له علاقة بنيرو.. ولم تكن معتادة على الجهل والعجز.. كان البنسيون فارغاً في تلك اللحظات، وما من أحد حجز غرفة له بعد، لكنها كانت تتخوف من حلول تلك اللحظة.

الأسوأ من كل هذا أنها وهي تعمل، كانت تتلقى باستمرار تعليقات مرحة من ريكي عن نيرو وكانت تتساءل من هو ذلك القديس الذي يساعد ريكي على هذا.. ومع مرور الأيام ببطء، بدأت تشعر بالسأم الشديد، وبما أن نيرو أخذ السيارة المستأجرة، واستخدمت هيلين سيارة ريكي، فقد بدأت القرية تتحول في نظرها إلى سجن.. حجمها المحدود، ونقص التسهيلات، والظلام، أهلها المتكتمين، أشياء تراكمت كلها لتحطيم روحها المعنوية.

- يا الله يارا! ماذا حدث لك؟

تابعت مسح الأرض الرخامية عابسة، تعي تماماً كيف تبدو، بشعرها المشعث كأذناب الفئران. كانت قد توقفت عن استخدام مجفف الشعر مع عدم ثبات التيار الكهربائي، إضافة إلى أنها حين تستخدمه كانت تقطع التيار عن المنزل مرة أو مرتين.

قال ضاحكاً وكأنه يتفوه بنكتة عظيمة:

- تبدين مختلفة تماماً بدون تبرج.

دعكت يداها الرخام بقوة، هناك أمل ضئيل أن تتحقق أمنياتها ويتزحلق

نيرو ليكسر عنقه اللعين.

وتمتم بعد أن أصبح وراءها، أكثر قرباً الآن:

- خرساء! إضافة إلى جمالك؟ كم يمكن أن أكون محظوظاً؟

ببطء غسلت الممسحة في السطل أمامها.. وظهرت قدما نيرو، فنظرت إليهما لحظة بحذر، لكنها كبتت نفسها. ثم دفع السطل بعيداً، وركع مثلها مبتسماً يلتقي وجهها بوجهه.

قال بمرح زائد: مرحباً.

ردت بخشونة: مرحباً.

ثم رفعت يدها ممسكة بالممسحة تدسها في وجهه.. لكنها لم تكن سريعة بما يكفي، فأمسك معصمها في الهواء.

- أعط الضيوف هذا النوع من الاستقبال يارا، ولسوف يطالبون ببرنامج مماثل كل صباح.

دون أن تفهم، نظرت إليه بارتباك، وامتدت نظرته من فوق كتفها وقال بشرح لشخص خلفها:

- إنها عادة محلية.

برعب، أدركت أنه يعني وجود ضيوف في الردهة، فقفزت واقفة تستدير وهي تمسح يديها في تنورة قديمة، وقد راعها أن تُضبط في هذه الحالة.

قالت تلتزم الأدب:

- كيف حالكم..؟ أهلاً في بانسيون «روكا»! هل جئتم من بعيد؟

- من لوكسمبورغ.. جئنا مع الدون نيرو.

اللعنة على دون نيرو! قالت بلطف:

- أرجو أن تكون رحلتكم جيدة.

وضع الرجل حقيبة صغيرة من يده:

- أوه.. عظيمة.

وأدركت أنهم سيقيمون هنا.

اللعنة على دون نيرو مرة أخرى!

إنها متعبة غاضبة فلن تجد أفعاله مسلية . فالتسوق كل يوم، وحمل أكياس ثقيلة من الخضار الطازجة لم يكن مزحة . . خاصة والمياه تنقطع كلما حاولت الاستحمام . . ولا استيقاظها عند الفجر لتحضير الخبز الطازج . . ولا وقوفها في المطبخ لصنع المعجنات لأجل ريكي .

تحركت برشاقة قدر استطاعتها نحو منضدة الاستقبال . . وقالت مبتسمة :

ـ غرف منفردة للجميع؟

إنهم ستة ! فهل ستتمكن من تدبير أمرها؟

ـ أرجوك . . وستتناول جميعاً الفطور .

قال نيرو :

ـ والعشاء كذلك، كما أرجو .

تساءلت يارا ما إذا كان لديه قدرة التخاطر؟ وحاولت إرسال المزيد من الأفكار المهينة الفظة نحوه، لكنه لم يتلقفها وبقي يبتسم لها ببلاهة .

ابتسم الرجل :

ـ عظيم . . نحن نحب الطعام الصقلي . . فهو طيب جداً .

قال نيرو :

ـ جيد . . يارا بعد إيصال الجميع إلى غرفهم، ربما تحضرين لنا فطوراً متأخراً بعد نصف ساعة . . نكاد نموت جوعاً .

بابتسامة حلوة، رفضت السماح له أن يعرف بأنه أزعجها .

ـ بالتأكيد . . ما من مشكلة .

وهي تنزل السلم العريض نحو الساحة بعد عدة دقائق، تركت العنان لغضبها فأخذت تتمتم لنفسها حول الرجال الذين لا اعتبار لديهم لتعب غيرهم . . وكانت مضطرة إلى صرف بضع شيكات سياحية خاصة بها من عند البقال ثم الذهاب إلى المخبز أملاً في الحصول على كعك طازج .

وهي تمسك المعجنات الساخنة ورغيف خبز طويل في حقيبة ورقية، عادت لصعود السلم مرة أخرى ذلك اليوم وهي تلعن روكا، وتتمنى أن ترى

نيرو في الجحيم . . داعبت رائحة الخبز الساخن أنفها مختلطة برائحة البرتقال . . فالخبز معجون مع طحين الذرة القاسية التي تعطيه اللون الأصفر . . كان الخبز لا زال يُصنع في أفران بسيطة تشتعل بأغصان من أشجار الحامض والبرتقال .

أمها كانت تعمل يوماً في المخبز . كانت تتكدر في كل مرة تذهب فيها إلى هناك لترى الخباز وزوجته يطعمان الفرن الناري بالحطب ويتعرقان في حرارته الشديدة . لا بد أنه كان لأمها وجه أحمر ويدان خشنتان، ولا بد أنها كانت تستيقظ قبل الفجر، وتعمل طوال اليوم في دفع الأرغفة على ألواح خشبية طويلة إلى النار .

لكنها لا تذكر شيئاً من هذا . . وكانت يارا تصبح أكثر تجهماً . عليها أن تفهم شيئاً من نيرو وإلا ستجن في هذا المكان .

خلال الفطور، ناقش الرجال بوجوه صارمة مواضيع الساعة في العالم . . في وقت كانت تأمل أن يتحدثوا بالأعمال . . نظفت الطاولة وغسلت الصحون وقامت ببضع مهمات لريكي ثم ركضت إلى المحلات في الساحة لشراء العشاء، تحس بالاكتئاب والتعب .

حتى بعد العشاء، لم تستطع غسل الصحون، فقد أبقاها الرجال مشغولة بصنع القهوة والشاي وتقديم العصير المثلج والمرطبات . . أخيراً، وبعد منتصف الليل، سمعتهم يصعدون السلم فصنعت لنفسها القهوة لتستعيد نشاطها . . وجلست مسترخية على كرسي تخلع حذاءها بإرهاق . . ارتفع احترامها لهيلين عدة درجات . . إنها تبسط الأمور، ولديها وقت يكفي لريكي، لنيرو، ولها كذلك . وأحست يارا بالذنب لأنها بالكاد تحدثت إلى ريكي هذا اليوم . . ولا بد أنه يشعر بالسأم .

رفعت رأسها تنظر إلى نيرو وقد سد بجسده المدخل إلى المطبخ، ولاحظت بغضب كيف أن نظرته تتطلع إلى الفوضى على الطاولة، وإلى الصحون المكدسة في المغسلة .

وتمتمت :

- لا تجرؤ على قول شيء!

- ما رأيك في أن أقول: سوف أنظف عنك كل شيء بينما تتمتعين بالقهوة يارا؟

قالت بحذر:

- أنت لا تبدو ملاكي الحارس.

- ثياب الملاك ستصل في البريد.

ابتسمت يارا، فتابع: هكذا أفضل.

تقدم وملأ فنجان قهوتها، فكورت قدميها تحتها فوق المقعد، تمسك الفنجان بين يديها.

أخذ نيرو ينظف الطاولة بسرعة، ويمسح بقايا الفاكهة في وعاء الأوساخ.. وهو يقول:

- الحياة المنزلية ليست لك إذن.

- لا يمكنك وصف هذه الأعمال الشاقة بالحياة المنزلية! رعاية عصابة من الرجال ليست حياة منزلية، أليس كذلك؟

لم يعلق.. وراقبته يرفع كميه ويملأ قصعة بالماء والصابون.. لا شك أنه يظنها فتاة مدنية مدللة، غير قادرة على العمل اليومي الصعب. لكنها في تلك اللحظات لم تكن لتهتم.. وقال نيرو:

- لقد قلت لريكي إن هذه ستكون غلطة.

كل ما كانت تراه منه كان ظهره العريض وهو يدعك المقلاة التي تركتها متسخة ببقايا الجبن الذائب.. وقالت بتكاسل:

- أنت على حق.

سألها مبتسماً:

- ألن تحاربيني يارا؟

هزت رأسها بفتور همة، فترك الغسيل ومسح يديه في منشفة وركع على ركبتيه أمامها.

قال بعينين جادتين:

- لقد رتبت إجراءات ذهاب ريكي إلى المستشفى في الأسبوع المقبل.. ولا شيء يُفزع، لكن الوقت حان لتجربة جراحة صغيرة قد تساعده على الحركة، وسيبقى هناك لعشرة أيام.

- مسكين ريكي.. ومسكينة أنا! سأضطر إلى البقاء هنا لأدير هذا المكان.

- لا.. ريكي قلق عليك.. يعتقد أن من غير الإنصاف أن نتوقع من فتاة مثلك أن تعجبها الحياة في روكا.

- لقد حاولت..

- أعرف. ولا بد أنك عملت جاهدة بحيث أنك أهملت مظهرك.

- وأنت سخرت على حسابي؟

- لا.. بل كنا نبدي الإعجاب بالطريقة التي بدوت فيها.

أمسك يدها مبتسماً:

- لا أحب أن أرى أظافرك المصقولة اللامعة مقصفة، ويداك خشنتان حمراوان.

- يا لك من رجل! تريدني أن أكون الخادمة والسيدة، العاملة وربة المنزل، فاتنة ليلاً وأقلب المعجنات التي لا تنتهي وأنظف الحمامات نهاراً.

- يا إلهي يارا! أي شيء أقوله ينقلب ضدي.. أليس كذلك؟ أنا أحاول أن أقول لك إنني معجب بكيفية لبسك وتقديم نفسك، وأفضل أن لا تضيعي مواهبك في المنزل.

- لأنك تعتقد أن مواهبي في جسدي فقط؟

- وكيف لي أن أعرف؟ الدليل واه كثيراً حتى الآن. لا.. لم أكن أفكر بهذا.. فقط بأنك لست في مكانك الصحيح.. ريكي يقول إنك مهتمة بشكل لا يصدق بإدارة المكان، لكنه يكره رؤيتك بائسة هكذا.. أنت لا تستسلمين بسهولة.. أليس كذلك؟

- لم يكن لدي خيارات كثيرة.. ألا تذكر؟ لقد تركتني في هذه القرية التي هجرتها رحمة الله، لو عرفت هذا لكنت جئت معي بتسليتي الخاصة. فرقة

- لا تجرؤ على قول شيء!

- ما رأيك في أن أقول: سوف أنظف عنك كل شيء بينما تتمتعين بالقهوة يارا؟

قالت بحذر:

- أنت لا تبدو ملاكي الحارس.

- ثياب الملاك ستصل في البريد.

ابتسمت يارا، فتابع: هكذا أفضل.

تقدم وملأ فنجان قهوتها، فكورت قدميها تحتها فوق المقعد، تمسك الفنجان بين يديها.

أخذ نيرو ينظف الطاولة بسرعة، ويمسح بقايا الفاكهة في وعاء الأوساخ.. وهو يقول:

- الحياة المنزلية ليست لك إذن.

- لا يمكنك وصف هذه الأعمال الشاقة بالحياة المنزلية! رعاية عصابة من الرجال ليست حياة منزلية، أليس كذلك؟

لم يعلق.. وراقبته يرفع كميه ويملأ قصعة بالماء والصابون.. لا شك أنه يظنها فتاة مدنية مدللة، غير قادرة على العمل اليومي الصعب. لكنها في تلك اللحظات لم تكن لتهتم.. وقال نيرو:

- لقد قلت لريكي إن هذه ستكون غلطة.

كل ما كانت تراه منه كان ظهره العريض وهو يدعك المقلاة التي تركتها متسخة ببقايا الجبن الذائب.. وقالت بتكاسل:

- أنت على حق.

سألها مبتسماً:

- ألن تحاربيني يارا؟

هزت رأسها بفتور همة، فترك الغسيل ومسح يديه في منشفة وركع على ركبتيه أمامها.

قال بعينين جادتين:

- لقد رتبت إجراءات ذهاب ريكي إلى المستشفى في الأسبوع المقبل.. ولا شيء يُفزع، لكن الوقت حان لتجربة جراحة صغيرة قد تساعده على الحركة، وسيبقى هناك لعشرة أيام.

- مسكين ريكي.. ومسكينة أنا! سأضطر إلى البقاء هنا لأدير هذا المكان.

- لا.. ريكي قلق عليك.. يعتقد أن من غير الإنصاف أن نتوقع من فتاة مثلك أن تعجبها الحياة في روكا.

- لقد حاولت..

- أعرف. ولا بد أنك عملت جاهدة بحيث أنك أهملت مظهرك.

- وأنت سخرت على حسابي؟

- لا.. بل كنا نبدي الإعجاب بالطريقة التي بدوت فيها.

أمسك يدها مبتسماً:

- لا أحب أن أرى أظافرك المصقولة اللامعة مقصفة، ويداك خشنتان حمراوان.

- يا لك من رجل! تريدني أن أكون الخادمة والسيدة، العاملة وربة المنزل، فاتنة ليلاً وأقلب المعجنات التي لا تنتهي وأنظف الحمامات نهاراً.

- يا إلهي يارا! أي شيء أقوله ينقلب ضدي.. أليس كذلك؟ أنا أحاول أن أقول لك إنني معجب بكيفية لبسك وتقديم نفسك، وأفضل أن لا تضيعي مواهبك في المنزل.

- لأنك تعتقد أن مواهبي في جسدي فقط؟

- وكيف لي أن أعرف؟ الدليل واه كثيراً حتى الآن. لا.. لم أكن أفكر بهذا.. فقط بأنك لست في مكانك الصحيح.. ريكي يقول إنك مهتمة بشكل لا يصدق بإدارة المكان، لكنه يكره رؤيتك بائسة هكذا.. أنت لا تستسلمين بسهولة.. أليس كذلك؟

- لم يكن لدي خيارات كثيرة.. ألا تذكر؟ لقد تركتني في هذه القرية التي هجرتها رحمة الله، لو عرفت هذا لكنت جئت معي بتسليتي الخاصة. فرقة

موسيقية من أربعة أشخاص، راديو، ونصف دزينة راقصين محترفين.

- بإمكانك استئجار مدبرة منزل من القرية.

نظرت إليه يارا بإحباط.. الفكرة لم تخطر ببالها! لكنها غطت سخطها من نفسها بسؤال:

- وهل كانت ستسليني؟

- ليس بقدر الراقصين المحترفين يارا.. ريكي وأنا تكلمنا بالأمور.. ويعتقد أنك ستتمتعين برحلة إلى «تاورمينا» حين يذهب إلى المستشفى.. إنها مكان سيعجبك.

- أتعني أن فيها أرصفة، ومطاعم أنيقة، وناس يبتسمون، ومعدات كهربائية، ومياه، وليس المكان كله متجهم؟

ضحك نيرو:

- مسكينة روكا.. أرى أنك لن ترغبي في العودة إليها.

- لم أقل هذا.. لا تضع الكلمات في فمي.. سأفعل أي شيء لو كنت مضطرة.

- أنت قوية جداً.. أعترف لك بهذا.. لكن لماذا لا نأخذ فرصة.. كلانا؟

عبست:

- أنت قادم أيضاً؟ ظننتها رحلة في عربة جياد أو ما يشبه ذلك.

- شيء من هذا.. أنت مدعوة للإقامة في «بالازيو» «الأمير».

- قصر؟ ماذا أسمي هذا الرجل؟ وكيف حصلت على الدعوة؟

ابتسم:

- ناده صاحب السمو.. صحيح أن الألقاب ملغاة، لكن الجميع يستخدمونها كنوع من الاحترام و.. المديح. ريكي طلب لك الدعوة، ما رأيك؟

- لا أستطيع الانتظار.. أيمكن أن أصرف أصدقاءك غداً؟

- تحملهم لأسبوع.. بعدها سيذهبون لوحدهم ونقفل البانسيون.

قالت ببطء:

- لكن ريكي يحتاج إلى المال.. ربما يجب أن أحافظ على إدارة الفندق.

- أنا مسرور لتفكيرك بمصلحته قبل حاجاتك.. لا يارا.. أصدقائي أغنياء، ويدفعون أجر فندق عادي لمجرد البقاء هنا قريباً من المكان الذي يريدونه.

كانت على وشك أن تسأل لماذا يريدون أن يكونوا في روكا، لكنها فهمت أنهم لا بد جزء من خطط نيرو. وابتهجت.. فلو بقيت هنا، قد تكتشف ما يجري.

قالت بحزم:

- يمكنك الاعتماد علي لأسبوع.

تمتم نيرو وابتسامة عريضة تنتشر على وجهه:

- أعرف هذا.. أعرف أنني أستطيع.

***

٧ ـ يشد خيوطها

معرفة يارا أنها ستسافر في رحلة وقد تتمكن من ارتداء بعض الثياب الأنيقة التي وضعتها في حقيبتها فكرة أبهجتها كثيراً.

إما أن تكون قد انتعشت بفكرة الخلاص من روكا، وإما أنها أصبحت أكثر كفاءة، فقد أصبح هناك وقت للراحة، وقت ثمين رائع كانت تقضيه مع ريكي، وكان يتحسن يومياً وهذا ما كان يزيد من ارتفاع روحها المعنوية.

ذات صباح، كان لديها ساعة فراغ قبل تحضير الغداء. لكن ريكي كان نائماً على الشرفة في الشمس.. ورأت نيرو والرجال الستة يتمشون بعزم نحو القلعة.

طبعاً.. لحقت بهم لتجدهم مستندين إلى حاجز الشرفة المطلة على الوادي ينظرون إلى «روكا السفلى» وتسللت إلى أقرب ما تجرؤ لتسترق السمع دونما خجل.

كان نيرو يقول مشيراً إلى مدخل الوادي:

ـ السد لا يكاد يضايق شيئاً.

قال أحد الرجال:

ـ لا أرى سبباً يمنع التنفيذ دون نيرو.. الآن أصبح لدينا كل الوقائع.. ماذا عن الرشوة؟

تصلبت يارا مترقبة، عيناها تتسعان!

ـ لقد رتبت أمر هذا.. والرشوة موجودة، أول دفعة ستكون في «تاورمينا» مبلغ ضخم.. بالإمكان القول إنه يسيل اللعاب.

ضج الرجال بالضحك.. أحست يارا وهي رابضة وراء جدار حجري بالبؤس. لقد اكتشفت خيانة نيرو، صفقته الاحتيالية، مع ذلك جعلها هذا تعيسة بعد تأكد شكوكها حوله.

قطع صوت حديث أطفال أفكارها، واستدارت لترى مجموعة منهم تدخل من بوابة القلعة، تظاهرت أنها تربط شريط حذائها، لكن التلاميذ لم يلحظوها.. وتابع التلامذة العشرون السير أزواجاً، يداً بيد.

بدأت المعلمة بتنظيم لعبة، وأخذ الرجال يتفرجون، مستندين إلى الجدار الحاجز قرب يارا، وقد نسوا أعمالهم ولو مؤقتاً.. وتساءلت يارا ما إذا كان يجب عليها أن تتسلل الآن قبل أن يكشف أحد أمرها.

سأل أحد الرجال:

ـ هل يعرف ريكي؟

ترددت يارا تكتم أنفاسها، وقال نيرو:

ـ لا يعرف شيئاً.. لا أجرؤ أن أثق به أو بأخته.

ـ بالتأكيد يكره غاريتي، وكل ما يمثله.

ـ كان هذا انتقامي الشخصي.. أن أسلبه ريكي. ريكي لم يأت لينضم إلي في ثورة غضب.. بل بعد سنتين من التفكير.. وهذه المسألة هي انتقامي العلني.. لكن لا يجب أن يعرف بها أحد إذا كشف أمرنا قبل دفع الرشوة..

تمتم الرجال موافقين على الفكرة، ورأت يارا أنهم يتحركون فتراجعت، تركض بسرعة الريح نحو المنزل.. تاورمينا.. سيحدث هذا هناك، ويجب أن تلتصق بنيرو كالعلقة.. مع من تستطيع أن تتكلم؟ مع ريكي؟ خفت سرعة قدميها ثم أخذت تجرهما صعوداً على السلم نحو غرفته، حيث ترددت.

ليس بعد.. إنها تحتاج إلى المزيد من الأدلة عدا السمع.. في هذه اللحظات، لا يمكنها تحميل ريكي عبء معلومات كهذه.. ثم إنها ستفتش غرفة نيرو، في اللحظة التي تتمكن فيها.

كانت لا تزال تقف على فسحة السلم العلوية ترتعد خوفاً حين دخل

الرجال إلى المنزل، فهربت إلى غرفتها.. إذا كان نيرو متورطاً في الرشوة والفساد بالنسبة لبناء السد، إذن فهناك مال كثير وستقع في متاعب خطيرة إذا اكتشف تطفلها.

لكن كم هي خطيرة؟ هل أن سمعة نيرو السيئة يستحقها فعلاً؟ أحست بقشعريرة تسري في ظهرها، ترافقها حيوية ونشاط لم تشعر بهما منذ زمن طويل.. فالخطر يمكن أن يكون مثيراً.

تلك الليلة، بعد أن ذهب الجميع إلى النوم، مشطت شعرها بعناية، واندست في غلالة نوم من الساتان وروب مماثل بلون المحار، وتسللت إلى غرفة نيرو.. تقرع الباب.

استدار المفتاح في القفل، وهو يفتحه.. ووقف على ضوء الشمعة لا يزال مرتدياً ثيابه، يرفع كميّ قميصه حتى ذراعيه البنيتين.. ونظرت يارا إليه وغصت بريقها، تفكر بالأذى القادر أن يوقعه بها.

قال:

ـ تبدين مذعورة.. ما بك؟

ـ أنا خائفة!

ـ يارا!

وضمها بين ذراعيه، ورأت للمحة قصيرة طاولة مغطاة بالأوراق قبل أن تلامس يداه وجهها بلطف، فاضطرت لإبعاد نظرها.

ـ قولي لي ما الذي يخيفك؟

تساءلت ماذا يمكن أن يقول لو قالت له الحقيقة.. لو قالت إنها خائفة منه.

ـ لا أعرف.. لكن.. كان يجب أن آتي إليك.

أخذها بلطف لتجلس على السرير، وتركت عينيها تتجهان إلى الطاولة بوثائقها المبعثرة.. وبادعاء زائف، رفعت يدها إلى جبينها وسألت بضعف:

ـ أيمكن أن تأتيني بشيء أشربه، ماء بارد أو عصير ربما؟

كل شيء مسموح في الحب والحرب.. وهذا نوع من الحروب.

ـ أجل. أنا..

نظر نيرو إلى الطاولة.. واضح أنه متردد بين أن يخرج على الفور وبين أن يجمع كل الأدلة على صفقته المريبة.. وتكورت يارا كالقطة الصغيرة وسط فراشه وظهرها إلى الطاولة، وسمعت صوت مغادرته الغرفة، ووقع خطواته على السلم الرخامي.

على الفور قفزت تفتش في الأوراق.. معظمها كان باللغة الإيطالية، وبعضها بالفرنسية.. استقرت عيناها على ملف معنون باسم «مشاريع الاستثمار الأوربي» وفتحته بأصابع مرتجفة.. في الداخل لائحة للسنة الحالية، مشروعان متنافسان لقرض من المصرف الأوربي: الموقع الذي يملكه أبيها في جنوبي غرب انكلترا الذي كانت تعمل عليه.. ومشروع السد في روكا.

تسارع تفكيرها، حاولت التفكير بما يعنيه هذا.. واقترب وقع قدميّ نيرو. وهي تشعر بالغثيان فعلاً، عادت لتتكور فوق الفراش وسمعته يتمتم ويقول:

ـ جئتك بالليموناضة حبيبتي.

حين جلست أحست فعلاً أنها مصابة بالدوار.. وهمست: شكراً لك.

قال بهدوء:

ـ أتمنى لو أستطيع مساعدتك.

رفعت عينين متوسلتين إلى عينيه: تستطيع.

ـ قولي لي كيف، وسأفعل.

قالت بمرارة، تشعر بالبؤس يتصاعد إلى حنجرتها:

ـ أتمنى لو أنك تعني ما تقول.

إنه يريد أن يدمر أباها ويدمرها في الطريق.. لكنها هي وحدها تستطيع أن تمنعه.

قال بحزم:

ـ أعني ما أقول.. يارا، لديك فكرة خاطئة عن حقيقتي.. وأنت لا

تعرفين نصفها.. بعد.

قالت مرتجفة:

- يبدو لي هذا كتهديد.

- لا.. إنه وعد بأن تعرفي يوماً كل تحركاتي.

صاحت بصوت أجوف:

- إذن تصالح مع والدي! وتوقف عن إيلامي من خلاله! لقد التقطك من الأزقة..

- لا تكرري أشياء قالها هو لك! أنا لم أكن في الأزقة!

- كنت دون أبوين، ولا مكان تعيش فيه، وكنت في الأسمال.. أنكر هذا إذا استطعت!

مرر يده في شعره، وتركه مشعثاً.. وتمتم:

- لا أستطيع إنكار هذا.. ولا أستطيع نسيان معاملته لي.

قالت بتعاسة، وعيناها مبللتان بدموع لم تتساقط:

- إذن.. فنحن عدوان.

- أنت تظهرين الولاء كما يجب لابنة أن تفعل. نحن لسنا عدوان يارا، ليس ونحن نستجيب لبعضنا بالطريقة التي نستجيب بها.. ألم تشتاقي إلي؟

أحست بأصابع مبللة تمر على وجهها، وأدركت أنها لا بد أغمضت عينيها، ففتحتهما بسرعة لتكتشف أن وجه نيرو قريب جداً من وجهها.. وأكمل بصوت أجش:

- لماذا لا نواسي بعضنا هذه الليلة؟

- أنا.. أشعر باضطراب شديد.

عرفت أن وجهها شاحب أبيض لشدة التوتر، وأملت أن لا يتابع إغواءها..

بسرعة تجنبت يديه، وخرجت من السرير، لكن حين اتجهت إلى الباب اعترض طريقها وأسند نفسه إليه، ينظر إليها بعينين عارفتين. وسأل بهمس ناعم:

- إذن.. لماذا جئت إلى هنا؟

كلماته لسعتها بوعيدها الهادىء.. نظرت إلى وجهه مجفلة لتجده قاسياً لا رحمة فيه.

- أنا.. كنت خائفة.. دعني أعود إلى النوم.. نيرو.

- ألم تعودي خائفة الآن؟

أجبرت نفسها على الابتسام:

- لا.. قلقة فقط. العمل المنزلي لا يجعلني أحس بشيء عاطفي، أنا تعبة وأريد أن أنام.

أحست وكأن عينيه تخترقان عينيها.. تسعيان إلى الحقيقة.. ولم تستطع تغطية مشاعرها جيداً، فأسبلت جفنيها إلى الأسفل، تنظر بارتباك إلى الأرض.

سألها:

- هل كنت تتجسسين علي؟

ارتفعت عيناها:

- أتجسس؟ لأعرف عدد الفتيات في غرفتك؟ حقاً.. نيرو!

نظر إلى الطاولة، ثم إليها.. فجأة، وأمام ارتياحها، ابتسم وتحرك مبتعداً وفتح لها الباب.

- سآخذ ريكي إلى المستشفى صباح الغد.. لقد تقدم الموعد يومين عما هو مقرر.. سوف نسافر إلى «تاورمينا» قبل الغداء.. وداعاً للعمل المنزلي وأهلاً بالإثارة.. أوكي؟

لم تثق يارا بتقلب مزاجه السريع ولا بالترتيبات المتغيرة، لكنها على الأقل تخلصت من الورطة واستطاعت تجنب نظراته المتسائلة. على الأقل ستكون آمنة مع الأمير، وربما استطاع أن يساعدها إذا كان له نفوذ.. وفي الصباح حين يكون نيرو غير موجود، يمكنها الاتصال بأبيها لتحذره مما يجري..

كلما اكتشفت شيئاً أكثر عن نيرو، كلما أحست بالسوء يتعاظم.. يا الله.. من الرهيب أن تكون على حافة سكين حادة.. وشكرت السماء كونه

يجهل بأنها تعرف شيئاً!

في غرفته، وضع نيرو الوثائق في الحقيبة وجلس حتى وقت متأخر يضبط أعصابه متألماً. لا يمكنه السماح لشيء أن يتدخل في مشروعه المخطط له بدقة.

***

بعد ظهر اليوم التالي، ارتدت يارا ملابسها بعناية قاتلة.. أو بالأحرى مذهلة. قميص حريري أبيض مع تنورة ضيقة بنفس اللون وحذاء عالي الكعبين. ونزلت تتهادى إلى السيارة..

لكن ما حيرها أنها وجدت نيرو ساخطاً غاضباً.. وكانت الرحلة مزيجاً من الإهانات الحادة، والغمز واللمز، والصمت الطويل.. وتساءلت عن السبب.

بدأت السيارة تعبر بهم أنفاقاً طويلة محفورة في الصخور.. وتمسكت يارا بأطراف مقعدها متوترة.. وهم يتقدمون نحو مدخل نفق آخر، فهمت من اللوحة التحذيرية قرب الطريق أن طول ذلك النفق يقارب الميلين.. وبدأت ترتجف.. إلى الأمام بدا النفق مظلماً ضبابياً وشمّت رائحة غاز الوقود.

قالت بصوت فيه حشرجة:

- نيرو!

نظر إلى وجهها المذعور، وداس لزيادة السرعة، متجاوزاً كل من كان أمامه.. وقال:

- تمالكي نفسك.. لن يطول الأمر.

مد يده إليها فأمسكتها تشد بأصابعها عليها وكأنها حبل النجاة.. هدير السيارة، العتمة، دخان العادم، كانت كلها تدفع بأنفاسها لتخرج متشنجة.

- بضع لحظات أخرى يارا.. لا أستطيع التوقف هنا في وسط طريق عام.. هناك مفترق طرق أمامنا.. تماسكي.. أنا معك، لا تخافي.

تأوهت: «نو مي بياس».

- أعرف.. بالطبع لا يعجبك!

كان ينظر إليها باستمرار، يضغط على يدها، يواسيها بوجوده.. ولم

يكن الذنب ذنبه.. ولا داعي لأن يعتذر:

- لم نعد نبعد كثيراً، اقتربنا..

من خلفهم، وهم يسرعون في الخروج تصاعدت أصوات الزمامير، وصاحت يارا تضع يديها على أذنيها.. وتوقفت السيارة على الرصيف، فرمت يارا نفسها بين ذراعي نيرو، كل عضلاتها تكاد تتمزق، وشد نيرو رأسها برفق إلى صدره.

كان هناك صوت صراخ في الخارج، وأحست بنيرو يتحرك وكأنه ينزل زجاج النافذة.. وتكلم الجميع دفعة واحدة لكن صوت نيرو كان الأعلى.

تمتم في أذنها:

- دقيقة واحدة حبيبتي.

أحست به يبتعد لكن يده بقيت على كتفها. من تحت رموشها المبللة، نظرت ببؤس إلى الرجال الذين كانوا يتصايحون، ورأت مجموعة من رجال الشرطة.. صاحت يارا:

- أوه.. نيرو! إنها غلطتي! قل لهم هذا! هل سيقاضونك بسبب السرعة؟ هل..؟

- لا بأس.. لا بأس!

كان يبحث في جيب سترته المرمية على المقعد الخلفي، وأخرج محفظة جلدية خاصة بالأوراق وأعطاها للرجال.

اتسعت عينا يارا.. هل يحاول رشوتهم؟ لكن مهما كان فقد أرضاهم.. وبدأوا يتشاورون ربما كي يوزعوا المال فيما بينهم.. ثم أعادوا المحفظة مبتسمين يلوحون لنيرو ويتابعون طريقهم.. وسألها بهدوء:

- هل تسترخين هنا قليلاً، أم نبحث عن مقهى؟

تمتمت:

- بل أفضل المقهى.

تحت مظلة، أصلحت يارا زينتها وأحست أنها أفضل حالاً وهي تشرب قهوتها القوية والماء البارد المنعش، بعد زوال أسباب رعبها.. وسألت نيرو:

ـ كيف عرفت أنني لا أحب الأنفاق؟

ـ لأنك حبيبتي تخافين الأماكن المظلمة . . أنت تشعرين وكأنك عالقة في الفخ داخلها .

سألت :

ـ وهل علقت في مكان مظلم وأنا طفلة؟

قال بلطف : أجل .

وضعت يدها على يده :

ـ كنت لطيفاً جداً معي . . شكراً لك .

أجفلت، لقد تفوهت ببضع كلمات إيطالية وهي في النفق . . هذا غريب، في خوفها لا بد أنها تذكرت شيئاً من اللغة التي كانت تعرفها يوماً .

بالتدريج استرخت، بوجود رنين أجراس الماشية وتغريد عصافير الدوري تعكر الهدوء المخيف . . وابتسمت لرؤية قطيع من الأبقار وقد زينت قرونها بالزهور . . قالت بحرارة :

ـ انظر . . لا بد أنها أيام احتفال هنا .

ـ هذا ما يبدو .

بدا نيرو سعيداً . . وأمسك يدها بدون مقاومة . . يراقب عينيها طوال الوقت . . لكنها أبقتهما منخفضتين تعرف أنه يبحث فيهما عن دليل ضعف نحوه .

قالت بابتسامة عابثة :

ـ المكان كالجنة .

التفت يده حول مؤخرة عنقها قائلاً :

ـ لماذا لا نجد أيكة زهور حيث أستطيع أن أعانقك كما أشاء؟

رفعت رأسها إلى الوراء وقالت ضاحكة :

ـ هكذا ستفسد ثيابي البيضاء . . ولن أبدو في أفضل حالاتي أمام الأمير . .

ـ إذن أود متابعة السفر إن كنت لا تمانعين .

ـ وكم تبعد تاورمينا؟

ـ اسألني بالإيطالية .

ضحكت :

ـ لا تكن سخيفاً! تعرف أن معرفتي باللغة معدومة .

ـ حسناً . . ستكون الرحلة أطول على هذه الطرقات الفرعية . . فلن نعود إلى الطريق الرئيسية ففيها عشرات الأنفاق .

ـ شكراً لك . . مع أنك جلف ساخر فأنت تدهشني بلطفك أحياناً .

ـ ومع أنك امرأة سطحية فأنت تدهشينني بعواطفك .

وفتح لها باب السيارة . . قالت بنعومة :

ـ هل سنعود إلى الإهانات؟ جيد . . دعنا نرى كم من رجال الشرطة تستطيع رشوتهم قبل أن نصل إلى «تاورمينا»! أنا أتمتع برؤيتك تشد الخيوط كما تشاء .

ضحك نيرو ودخل إلى مقعد السائق :

ـ احذري كي لا أشد خيوطك .

ـ لن تستطيع، فأنا أكثر ذكاء من أن أقع في حيلك .

ـ أنت تعتقدين أنك سيدة التلاعب بالدمى وتجعلين الرجال يتراقصون طوعاً لأوامر يديك؟ يارا . . هناك مفاجأة في انتظارك .

ضحكت :

ـ أحب المفاجآت .

التوى فمه، وقال متمتماً :

ـ أعدك أن تحصلي على مفاجأة .

تنهدت تتمطى بتكاسل :

ـ أخبرني شيئاً عن الأمير .

ـ أوه . . إنه من النوع العادي المنغمس في الملذات .

قالت بحماسة :

ـ أوه . . يبدو فاتناً .

ـ فعلاً . . ولسوف يسحرك .

- هل هو وسيم؟ شاب؟

- كم تبدين متشوقة يارا.. كنت آمل أن نتسلى معاً، أنت وأنا.. لكن يبدو أنني سألعب دوراً ثانوياً أمام لقب مشترى.

- أوليس نبيلاً حقيقياً؟ أليس له خلفية عائلية تثير الاهتمام بجنون؟

- بجنون أجل.. لكنه ليس نبيلاً. والده كان تافهاً وأدينت أمه بالسرقة، وأخوته الستة لم يقوموا بعمل في حياتهم.. هل خاب أملك؟

- أنت تمازحني بقصد الإزعاج! ما من أحد له مثل هذا النوع من العائلة.. أوه نيرو..! هذا المكان مذهل! انظر إلى مناظره! وإلى تلك الفيللات الرائعة!

قال بابتسامة:

- هذا ما يعجبني فيك يارا.. تلتهين بسهولة..

دخل عبر مدخل حجري مقنطر، ثم إلى شارع ضيق مرصوف بالحجارة، كان ممتلئاً بالعرائش المزهرة التي تتدلى من شرفات جميلة من الحديد المزخرف.

نظرت يارا حولها بابتهاج، والسيارة تقفز بهما عبر الأزقة، تلمح بعض محلات الثياب الأنيقة ومحلات بيع الأثريات، والمطاعم..

قالت بلهفة:

- لقد أحببتها.. وسأحبها أكثر.

- عظيم.. من الأفضل أن نتوقف هنا.. لا أعتقد أننا سنستطيع الاقتراب أكثر.

- ألن توقف السيارة في مكان آمن؟

- لا.. سيأتي أحد لأخذ الحقائب ولإيقاف السيارة في مكان مناسب.

- وهل أميرنا بهذا الغنى؟

أحست بنظرته عليها، ورفعت عينيها إليه لترى شيئاً يشبه خيبة الأمل على وجهه.. إنه يغار! فضحكت يارا..

قال:

- الأمير ذو نفوذ.. والناس ينفذون له كل شيء.

لم يعجبها هذا.

- أوه.. فهمت!!

وهما يسيران عبر ساحة «كورسو اميرتو» كانت تلاحظ النظرات التي يجتذبانها.. وعرفت أنهما يبدوان ثنائياً مذهلاً.. ومع أن كثيراً من أصحاب المحلات انحنوا له تأدباً.. إلا أن هذا أزعجها..

في نهاية الزقاق كان هناك ساحة صغيرة تلف واجهاتها الثلاث سلالم عريضة، تقود إلى مبنى حجري مهيب ذهبي اللون له أعمدة محفورة وقناطر، ونوافذ خشبية خضراء قاتمة، وشرفات يسيجها حديد مزخرف أسود.. ولمعت عينا يارا.. يمكنها نسيان روكا وطريقة العيش القاحلة البدائية فيها.. والعودة إلى طبيعتها المشرقة مرة أخرى.. أما بالنسبة لتوقعاتها بمعرفة المزيد من المعلومات من المتكتم الصموت نيرو، فأصبحت أقلّ إلحاحاً في محيط كهذا.

سار نيرو معها صعوداً على السلم عبر أحواض حجرية ضخمة زرعت بشتى أنواع الورود والياسمين.. في الداخل كان المكان بارداً طلق الهواء.. على الفور خرج الخدم لاستقبالهم.. يبدون الكثير من الاحترام.. ولرعب يارا خاطبه الجميع بالطريقة ذاتها.

قال يدس يديه في جيبيه ويتفرس فيها ساخراً:

- وجهك صورة جميلة.

قالت بلهجة التهديد:

- ووجهك سيصبح بكل ألوان قوس قزح بعد لحظات. لا يمكن أن تكون أميراً.. ولا يمكن أن يكون هذا قصرك.. إنه كبير جداً.. كل هذا الطلاء الذهبي والرخام مكلف للغاية.

تلاشى صوتها وعضت على شفتها بسرعة لتستعيد رباطة جأشها.. بالطبع إذا كان فاسداً سيكسب الكثير الكثير من المال.

أكملت بتوتر تتساءل كيف سيرد عليها:

- .. يكلف أكثر مما يكسب رجل يملك شركة بناء صغيرة..

ابتسم:

- ومن قال لك إن هذه هي أعمالي الوحيدة؟ لدي عدة أعمال.. وامتلاك أكثر من عمل واحد عادة إيطالية. لي اصبع في الكثير من الشركات.

قالت ساخرة تريد كسر غروره:

- كمثل تلك القصة للأطفال عن متعدد الصفات..

قال بهدوء:

- لم يقص عليّ أحد يوماً قصة أطفال.

أحست يارا بالحقارة.. حين كانت وريكي صغيران، كانت أمهما بالتبني ساعة وضعهما في الفراش تقص عليهما القصص وتعلمهما أغاني الأطفال.. أكثر من مرة لمحت نيرو يقف بالباب يصغي ونظرة غضب على وجهه.. وبالرغم من توسلات الأم، كان الأب يرسله إلى غرفته ليدرس قواعد اللغة الإنكليزية.

قالت في محاولة لتبرير نفسها وأبيها:

- لا شك أن أمك الصقلية كانت تفعل هذا.

- لقد رأيتها كثيراً في أول سنة ونصف من حياتي.. بعدها.. تعلمت أن أعيل نفسي.

قالت بفوقية:

- لقد ابتعدت مسافة طويلة عن محيطك الأصلي.

نظر حوله، وقال ساخراً:

- إلى الخارج.. وهذه هي مكافأة الحياة المنحرفة.

- حسناً، لقد قلت الحقيقة حول أن الأمير فاسد.. كيف حصلت على اللقب؟

- بشرائي القصر.. الأمران في صفقة واحدة.. أتحبين رؤية غرفتك؟

تأوهت:

- أوه.. يا إلهي! نيرو هل هناك ضيوف آخرين؟

أبدى دهشته:

- ولماذا أدعو أي شخص آخر؟ لن أتمكن من إغوائك والناس حولنا.

- أوه.. تباً.. ظننت نفسي سأغويك.

- لأجل غروري الرجولي، بإمكانك الادعاء أنني أنا الذي أجري وراءك.

- حسن جداً.. سوف أتظاهر بالضعف كلما تنازلت ولمستني يا صاحب السمو.

ثم انفجرت ضاحكة:

- الأمير! لقب سخيف! هل يناديك الناس هكذا حقاً؟

- لا تقللي من قدر اللقب.. إنه يأتيني بالعديد من الدعوات إلى أفضل الاستقبالات وحفلات التسلية. والآن، انتبهي «البلازيو» أو القصر هو من القرن الخامس عشر، وكان يستخدمه آل بورجيا..

- أحس بتأثيرهم يملأ الجو هنا.. وأظن أنك أحد أفراد أسرة بورجيا الأذكياء الشريرين وقد تقمص من جديد.

أكمل متجاهلاً ما قالت:

- ... والسرير في غرفتك يعود إلى القرن السادس عشر، والسجاد المعلق على الجدران هو من صنع پاسكالي، سريرك قرب النافذة والثريا فوق رأسك فينيسية الصنع.. والسرير فينيسي أيضاً، واسع وقوي بما يكفي ليتحمل فريق كرة قدم..

تمتمت:

- أفضل فريق روكبي... كل هذه الروائع الدافئة الحميمة.. يا لجمالها.

- أنا مضطر الآن لإجراء بعض المكالمات الهاتفية، في أثناء هذا يمكنك التفرج على التماثيل المذهبة..

ضحكت:

- هل تحاول التأثير عليّ؟

- وهل سأنجح؟

ـ هذا يتوقف على فريق الركبي!

ـ هذه هي غرفتك.. انظري إلى السرير.

كان سريراً فخماً مزخرفاً ومنقوشاً بالذهب بأربعة قوائم مرتفعة على الطراز الڤينيسي تغطيه ستائر سميكة.

تقدمت إلى باب زجاجي وقالت بهدوء:

ـ لقد رأيته.

كان هناك ياردات وياردات من الأورغنزا الصافية تتدلى من عامود خشبي مزين بالفاكهة ودفعت القماش جانباً لتخطو إلى الفردوس.. قال نيرو يتحرك بخفة خلفها:

ـ أعتقد أن هذا سيكون مكاناً صالحاً كبداية، وسننتقل بعدها إلى السرير.

ضحكت بخفة وتحركت بسرعة إلى حافة حديقة السطوح.. في البعيد كانت قمة «مونت أثينا» الليلكية اللون.. إلى الأسفل وعلى حدود بحر أزرق لازوردي، كان هناك أبنية بيضاء لڤيلات متنجع سياحي.. وراء القصر، كان هناك حدائق غنّاء مرتبة تتفجر ألواناً تتخللها أشجار خضراء مظللة.

قالت برضى حقيقي:

ـ لقد أعطيتني غرفة رائعة.

ـ والسرير..؟

ضحكت:

ـ أوه.. نيرو! لا يمكن تشجيعك على شيء!

ـ وهل هذا جيد أم سيء؟

ابتسم، وأكمل:

ـ أتريدين شيئاً تأكلينه؟ أم ترغبين في السير في البلدة؟ ليس هناك أشياء صاخبة كما أخشى، لكن هناك الكثير من الأشياء المثيرة للاهتمام.

قالت وهي تعود إلى داخل الغرفة:

ـ دعني أخلع هذه الثياب أولاً.. الآن وقد قابلت الأمير، سأرتدي شيئاً أستطيع السير فيه بارتياح.

قال بلهجة متوددة وهو يجلس على السرير:

ـ سأراقبك.

ـ أخرج.

ـ أحب المرأة المستبدة.

وخرج مطيعاً.

وجدت يارا أنها تضحك له مجدداً، وبقيت مرحة طوال وقت تغيير ثيابها.. تحاول تأخير اللحظة التي ستضطر أن تكون مخادعة فيها.. فهي في هذه اللحظات تتمتع بوقتها.

جلسا معاً في مقهى يراقبان من يمر بهما. وككل الرجال هناك، كان نيرو ينظر بجرأة وقحة إلى كل النساء المارات.. وفعلت يارا الشيء عينه مع الرجال لمجرد أن تزعجه..

على رصيف الطريق المرصوف بالحجارة، كان هناك رسام يضع قائمة رسمه ويرسم فتاة صغيرة. لكن الصغيرة كانت متململة وجهها يتحول إلى نظرة بائسة غير جذابة.

قال نيرو:

ـ اسمحي لي..

سار إلى الفتاة الصغيرة، وجلس القرفصاء إلى جانب واحد كي يتمكن الرسام من الرؤية بوضوح. وضع سيكاراً في فمه، وأخذ يقلبه ذات اليمين وذات الشمال، ليثير اهتمام الصغيرة.. تكلم إليها مستعملاً حاجبيه وكتفيه وأصابعه.. وضحكت الطفلة ولوقت طويل سلاها نيرو إلى أن فقدت حركاته بريقها.. وتقدمت يارا لتشجع الفنان، واضح أنه يحتاج إلى دقيقتين بعد لينهي رسمه.

قالت يارا:

ـ هيا نيرو.. ألا يمكنك تسلية أنثى لدقيقتين فقط؟

تنهد، ووقف ينفض جيوبه إلى الخارج ثم نفذ وقفة بارعة على يديه. رفعت يارا يدها إلى فمها، وضحكت ابتهاجاً وهو يسير في دائرة صغيرة،

وقال الفنان:

ـ لقد انتهيت.

قال نيرو محمر الوجه، يقفز إلى قدميه مجدداً: الحمد لله.

تقبل شكر والدي الطفلة وأبدى الإعجاب بالصورة وقبل الصغيرة بحنان على الخدين، ثم قاد يارا الضاحكة إلى المقهى مجدداً.

قالت له يارا:

ـ أنت استعراضي رهيب.

ـ ابقي في هذه البلاد بضع أسابيع أخرى، وستدركين أن من واجب كل إنسان لو بكى طفل أن يسارع إلى تسليته..

ـ إذن لهذا السبب المكان حميم هكذا.. يعجبني حب الصقليين للأولاد وتعلقهم بهم.

تحول صوته إلى اللطف:

ـ الأطفال والأولاد حتى في البيوت الفقيرة يرتدون الملابس الجيدة.. الحياة مؤمنة لهم.. آباؤهم مستعدون للتخلي عن أي شيء في سبيلهم.. ومع ذلك لا ينشأون مفسودين من كثرة الدلال.. بل معتدين بأنفسهم.

سألت بهدوء:

ـ وماذا عن أبويك؟ لم تكن جاداً حين أخبرتني عن خلفية «الأمير» العائلية.. أليس كذلك؟

تشتت تعبير وجهه، وكأن غيمة عاصفة حطت عليه.

ـ لقد وصفتهما كما وصفهما والدك.. حين كنا نتبادل الإهانات.

ـ صفهما لي كما تراهما أنت.. أرجوك.. أريد أن أعرف..

للحظات بقي صامتاً ينظر في الفضاء:

ـ والدي كان الأخ الأصغر وتحدى العادات المحلية. في صقلية، ثراء العائلة يعتمد على الأرض.. والقانون يوزع الإرث بالتساوي، فحين يموت الرجل من المتوقع أن يأخذ الابن الأكبر الأرض ويعيل بها عائلته وأخوته.. أما الأخوات فيتزوجن.

ـ لست أرى مشكلة في هذا.

ـ لو تزوج أحد الأخوة وأصبح لديه أولاد، يجب أن يحصل على حصة من الأرض يورثها إلى جيل المستقبل وهذا يقسّم الأرض الموجودة إلى أن لا يعود هناك شيء لأحد.. لذا، من الطبيعي، أن يتغاضى الأخوة الصقليون عن مسألة الزواج.. أو على الأقل أن يتناسوا عملية الإنجاب.. لكن والدي لم يستطع، كان يحب الأولاد كثيراً.

صاحت بذهول:

ـ يا إلهي! هذا لا يصدق!

ـ نحن قساة جداً على أنفسنا.. نتحمل أي شيء تقريباً لأجل العائلة.. ولقد عاش والدي على قطعة أرض صغيرة وكافح ليطعم أولاده الكثيرين. واتهمت أمي زوراً بسرقة مال من المخبز، ووضعت في السجن.. وهناك ولدت أنا.

جف حلق يارا:

ـ أهذا ما عنيته بأنك كنت في السجن؟ يا إلهي! هذه قصة رهيبة نيرو.

ثم فهمت.. في مكان صغير مثل روكا لا يوجد سوى مخبز واحد.. فتشت عيناها في وجهه المتحجر كالغرانيت.. وسألت هامسة:

ـ من اتهم أمك بالسرقة؟

ببطء، استدار إليها.. عيناه تلمعان، غير قادر على إخفاء الكراهية التي حملها في داخله طوال عمره.

قال بخشونة:

ـ ڤيريو بوراندي!.. زوج أمك.

***

٨ ـ الموت مفتاح اللغز

تمتمت يارا:

ـ يا إلهي! لا بد أنك تكرهنا جميعاً.

لم يرد نيرو بل ارتشف قهوته.. جلست يارا بتعاسة، بينما السواح يراقبون السكان المحليين الذين كانوا بدورهم يتفرجون على السواح الغرباء.

الحياة كانت هاوية بالنسبة لنيرو.. في البداية كان جو السجن الخشن البارد، المؤسسة التي تتعارض مع كل الحيوية المرحة للأطفال.. ثم العودة إلى الفقر والعوز، ثم اليتم، فالتبني والهجرة بعيداً إلى بلاد غريبة كرهها. لكن لماذا أزعج والدها نفسه بتبني صبي في العاشرة من عمره له أخوة، ومتعلق بنمط الحياة الصقلية بمثل هذه الشدة؟ هذا أمر غير مفهوم.. وتشوقت أن تسأل، لكن الوقت غير مناسب.. وسألت بهدوء:

ـ هل لنا أن نعود؟

هز رأسه موافقاً وسارا عائدين بدون كلام إلى أن دخلا القصر، حيث قابلهما خادم ليعطيه رسالة.

قال نيرو:

ـ إنها من المستشفى، الفحوصات التمهيدية تقول إن بإمكانهم معالجته هناك ووضعه تحت التمرين العلاجي.

قالت بحرارة:

ـ الحمد لله! هذه أخبار رائعة.. وهل سيكلف هذا كثيراً؟

ـ لا تقلقي.. أنا أتكفل بكل شيء كصديق قديم.

ـ شكراً لك.. سنجد طريقة نرد فيها الجميل.

بدا نيرو غير مرتاح:

ـ ربما.. لقد حضروا لنا العشاء على حديقة الشرفة. هل تمانعين؟

كان منشغل الفكر جداً بحيث لم تخش تحرشاته. لكن قلبها كان يهتف له بشكل متزايد مع كل لحظة يتنفس فيها.

ابتسمت حين رأت أنهم حضروا لهما العشاء على الشرفة وعلى الأرض في الواقع فوق شرشف أبيض يبهر النظر، مفروش بالأطايب.. أربعة شمعدانات فضية في الوسط لإضفاء جو رومانسي تحت النجوم.. وهذا كثير عليهما.

أكلا قليلاً.. طوال الوقت كانت يارا تراقب نيرو من تحت رموشها تتساءل ما إذا كانت ستقدر يوماً على تحويله عن طريق الجريمة. أخيراً وقف وقال:

ـ سأذهب إلى النوم.. عمت مساء.

ـ نيرو..

وسكتت برهة.. هناك دلائل إحباط على ملامحه ثم أكملت بعطف:

ـ أوه.. نيرو!

استدار ببطء، وجهه كعظام هشة في نور الشموع الأجوف.. وقال شاهقاً:

ـ أحتاج إليك يارا.. أحتاجك!

رن صوته محدثاً صدى في الفجوة بينهما وبصيحة مخنوقة فتحت له ذراعيها، فأسرع إليهما:

ـ يارا.. ضميني.. أحبيني.. فلنتظاهر أننا نحب بعضنا..

أمسك رأسها بين يديه يضمه بحب وليد الأمل واليأس معاً.. بالتدريج تغير هذا لشيء بدائي أكثر، وأصبح أكثر تطلباً، يعبر عن حاجته إليها بعنف حنون، وكأن العالم انتهى هنا في هذه اللحظات، ماذا تفعل يارا؟ كيف تتصرف؟

وهمست بصوت أرادته صادقاً إلى حد كبير:

ـ لا.. لا! ليس هذا الثمن!

تمتم وقد عاد إلى هدوئه:

ـ لا تقولي لا يارا، يارا هل هناك رجل آخر؟ أصدقيني القول.

قالت بآهة بطيئة متثاقلة:

ـ نحن نكره بعضنا.

لمعت عيناه.. ثم تعمّد تقبيل يدها بنعومة ملفتة، وبإيماءة خشنة مليئة بالمعنى نظر في عمق عينيها ليتأكد من أنها فهمت ما يريد قوله لها.. ضغط كفيه وانتصب واقفاً وعلى وجهه غضب يعبّر عما يفكر فيه. كراهيته لها شاملة ويجب السيطرة عليها.. عليه أن يجرحها عنوة ليجعلها عبدة لأحاسيسها العنيفة.

قال بخشونة:

ـ يارا.. يارا.. كلانا يريد الآخر، أشعر بذلك. ولا يخونني شعوري، اسمعيني، أنت لا تثقين بي.. وربما نحتاج إلى شيء لإنعاش حاسة الذوق لدينا.. ما رأيك؟

برعب، انكمشت من رؤية عينيه المشتعلتين.

ـ لا أظن..

قاطعها:

ـ لا أريد أن تظني شيئاً أبداً.. فقط.. أن تشعري.. أن تسمعي.. أن تعانقيني.. عانقيني يارا.

تأوهت:

ـ نيرو.. أوه.. يا إلهي! ابتعد عني.

ـ أنت تزدادين قسوة.

صمت للحظات.. ولم تعد يارا قادرة على فعل، أو قول شيء، ولا على الحركة.. بل تسمرت مكانها تخفي خفقان قلبها، وشحوب بشرتها.. وارتعاش يديها..

لو أنها قادرة على الكلام.. لأوقفته عند حده وقالت له لماذا لا تثق به.. لماذا تشعر بأنه مخادع وكاذب.. وحدهما عيناها تقولان ما تشعر به، وكانت يائسة من قدرتها على إيصال ما تريد قوله حتى أنها لم تعد تثق بعينيها.. وعرفت أنهما كانتا تتوسلان.

ضاقت يارا.. أرعبها التوق المتطاير من تعابير وجهه المفترسة.. وتصاعد توترها لرؤيتها تعابير وجهه المنتصرة فحاولت أن تبتعد..

لكنه منعها بقبضة حديدية وتصارعت معه وقاومته بشدة وإصرار وهو يمسك معصميها بدون جهد، وبيد واحدة يضعهما خلف ظهرها. لاهثة، أخذت تتلوى لتتجنبه، لكنها كانت تعطي نفسها المزيد من الابتهاج السّري لأنها ترفضه علناً وبدون تردد، ثم راعها سماعه يضحك.. أحنت رأسها بسرعة وعضته بقسوة.

فصاح متألماً:

ـ أيها المتوحشة.. ستندمين على فعلتك.

ـ نيرو.. أعرف أنك تريدني..

قال ساخراً:

ـ هه.. ها قد بدأت الموعظة.. أليس هذا وقت سؤالك لي عن خططي؟ أتظنين أنني أريدك إلى درجة قبولي بك، شريطة إعطائك المعلومات في المقابل؟ أم أنك مرتفعة الثمن إلى حد تضحيتي بكل شيء من أجلك؟ أتريدين أن أقنع المسؤولين بتمويل مشروع أبيك ليحقق أرباحاً طائلة.. أليست هذه أهدافك؟

نظرت إليه بدون فهم شيء.. فقد بدا فجأة شرساً.. شرارة الألم البارد تبرز من عينيه.. وبدت مذنبة، تعرف هذا، لأنها فعلاً حاولت استغلال أنوثتها لكسب المعلومات منه.

صاح بها:

ـ يا إلهي كم تزعجينني!

ـ نيرو.. الأمر ليس هكذا..

انحنى نحوها، يداه على جانبيها، فبدا لها مخيفاً:

ـ لا يمكنك تنفيذ الأمرين معاً.. إما أنا فقط.. وإما أنك كنت تتعمدين استغلالي للحصول على ما تريدين.. أهذا ما كنت تنوين القيام به مع ذلك المسؤول من البنك الأوربي؟ قولي لي الآن.. ماذا كنت تحاولين يارا؟

ضحك ضحكة متجهمة وتابع:

ـ هل.. لا.. أنا لن أسمي كل هذه الألاعيب حباً.. هل أحصل عليك لأنك تحتاجين إلي؟ هل أعتبرك ذبيحة عذراء بين الشموع؟ أم أن مجيئك معي.. بقاؤك بقربي.. هو بسبب دوافع خفية؟

كانت كل عضلاتها متوترة. أنفاسها تكاد تتوقف.. مهما ستقول أو تفعل، ستكون مذنبة.. لكنها لن تستطيع تركه يعاملها بكراهية. فلسوف يخونها وأبيها، وسيدمرهما بطريقة ما.. هو من خطط لهذا منذ زمن بعيد.

همست:

ـ يا له من خيار!

قال بمرارة:

ـ اختاري..

بدأت تستعيد جأشها، فجلست تحاول الرد وتهدئة الأجواء المشحونة بينهما:

ـ إنك تخيفني بوحشيتك.

بوقار متشامخ، وقفت، وراقبها نيرو من تحت حاجبين عاقدين.

ـ أنت جعلتني أتصرف بعنف. أنت تدفعيني إلى تدميرك وتدمير نفسي.. ألا تفهمين؟ يارا لن تكوني لأحد غيري.

جمدت.. تجلدت حتى القلب.. كم يكرهها.

رفعت رأسها إلى فوق متحدية:

ـ المزيد من التهديدات؟ انتظر حتى أخبر أبي وسيقتلك. والآن، اذهب..

صاح: مجنونة.

ردت مهاجمة:

التقطت شمعداناً ولوحت به مهددة. تنفس بثقل:

ـ يا إلهي كم أنت جميلة.. جميلة وقاتلة، كالأفعى السامة.. أنت تستحقين كل ما يحصل لك يارا.. فليساعدك الله أنت وأبيك.. أما أنا فلن أرحمكما.

دخل غرفته وسمعت الباب يصفق بعنف. وقفت عدة دقائق قبل أن تتحرك.. ظلت واقفة ترتجف على ضوء الشموع.. غير مصدقة أنها خرجت سالمة من هذه المعركة الطاحنة.

سرت قشعريرة في جسمها.. وتركت كل الفوضى التي حدثت خلال العشاء وبعده على الشرفة، وبدون أدنى اهتمام إلى اشتعال الشمع دلفت بسرعة إلى غرفتها لا تعي شيئاً. أقفلت بابها ودخلت الحمام لتقف تحت الدوش الساخن، دموعها تختلط برذاذ الماء.. مشجعة نفسها، ثم فجأة أدارت المياه الباردة.. وتصلب جسدها لشدة برودتها. لكن هذا أوقف جريان دموعها على خديها وأبرد وجهها المشتعل ألماً، وأسكت كل خفقان زائد داخلها.

جففت نفسها بقسوة، ورمت جسمها المبلل تتكور داخل الأغطية.. لكن الدوش البارد لم يخترق رأسها.. ولم يغسل بؤسها، ولا أفكارها، أو مخاوفها.

إنها تحتاج إلى رأس هادىء لتفكر.. وليس رأساً مذعوراً، عطلتها الجميلة في تاورمينا تنقلب إلى كابوس.

أخذت السماء تزداد نوراً وهي لا تزال تتقلب في فراشها وتتصارع مع أفكارها.. يجب أن تغادر.. بالطبع.. يجب أن تصل إلى والدها لتقول له كل المعلومات وتكشف نيرو له.. يا الله.. إنها متعبة! بالكاد تُبقي عينيها مفتوحتين. مع إقفال بابها، إنها آمنة لفترة.. يمكنها الآن أن تستسلم.. أن تنام.. ثم تواجه مشاكل اليوم القادم.

***

استيقظت أخيراً بعد تقلب متململ، متصلبة من الحرارة، لتجد نفسها

تتصبب عرقاً.. وإذا كانت ساعتها صحيحة فالوقت يقارب وقت الغداء! متأوهة، استحمت وارتدت ملابسها بدون إضاعة وقتها بالتبرج.

في الخارج سمعت فرقة موسيقية تعزف لحناً بائساً.. تقدمت إلى النافذة الجانبية وتطلعت إلى الخارج.. من التلة المرتفعة، كان هناك جنازة تشق طريقها.. ستة جياد سوداء مغطاة بقماش أسود، تجر عربة مزينة.. أمامها فرقة موسيقية، وخلفها صف طويل طويل من الناس كلهم بثياب سوداء يسيرون بخطى رتيبة.

خفق قلبها، واقشعرت بشرتها خوفاً.. إنه منظر ليست بحاجة إليه الآن.

ـ يارا!

قفزت رعباً لصوت نيرو الصارخ من الجهة الأخرى لباب غرفة النوم.

ردت صائحة: ماذا تريد؟

ـ والدك هنا.

ـ أنت كاذب.

ـ كما تشاءين.

ركضت إلى الباب تضع أذنها عليه.. من بعيد سمعت أصواتاً.. وبدأت الأصوات تتصايح وتعرفت على نبرة صوت أبيها.

وهي تبكي ارتياحاً، فتحت الباب ونزلت السلم راكضة لتدخل الصالون، حيث كان الرجلان يواجهان بعضهما.. ورمت نفسها بين ذراعي أبيها تصيح:

ـ كيف عرفت أنني بحاجة إليك؟ أشكر الله أنك جئت.

نظر مارتن غارينتي إلى نيرو نظرة كراهية:

ـ هل آذيتها؟ هل سببت ضرراً لها؟

تراجعت يارا قليلاً ونظرت إلى نيرو.. بدا وكأنه تمثال من ثلج.. حتى وجهه كان أبيض، وعظام وجنتيه بارزة قاسية.

وقالت بسرعة:

ـ لم يؤذني.. لكنني مسرورة برؤيتك.. لا تعجبني الإقامة هنا.

ـ قلت لك إن لا فائدة ترجى من المجيء إلى هنا.. هذا المكان ليس من مستواك.. ولا هذا التذلل.

دهشت للكراهية في صوت أبيها، وقالت راجية:

ـ أبي.. دعنا نذهب.. سنزور ريكي في طريقنا لنرى كيف حاله، و..

صاح مارتن:

ـ لا! ليس قبل أن أحصل على ما جئت من أجله!

قالت بلهفة:

ـ إنه خطير أبي.. انظر إليه! بارد لا قلب له! إنه يدير هذه الجزيرة بإصبعه.. حتى المصرف الأوربي يلعق حذاءه بسبب الرشاوى التي يدفعها.

سأل مارتن:

ـ حقاً؟ وماذا تعرفين عن هذا؟

قالت بازدراء:

ـ مشروعنا في كرونويل يتنافس مع أحد مشاريعه في روكا.. وهو ينوي رشوة المسؤولين ليضمن تنفيذ مشروعه وفشل مشروعنا.

أمسك والدها بكتفيها يهزها.

صاح نيرو يخطو نحوهما:

ـ دعها وشأنها.. أخرج غضبك الشرير عليّ أنا كما كنت تفعل دائماً.. لكن الفارق الآن أنني أصبحت رجلاً ولم تعد قادراً على ضربي.. ليس جسدياً، ولا معنوياً.. ولا حتى عاطفياً.

صاح مارتن:

ـ أريد حصتي.

ـ لقد حصلت على ما دفعت لأجله.

ـ برتقال؟ صناديق وصناديق من البرتقال المهترىء.

أجفلت يارا: ماذا...؟

قال والدها متصلباً:

ـ هذا النذل جعلني أدفع ثروة مقابل شحنة من البرتقال.

رد نيرو:

ـ هكذا كان الاتفاق: تشتري أنت البرتقال.. كل شيء مكتوب في العقود.. تصورت أن هذا مجرد تهرب من الجمارك والرسوم، وأنك تشتري موقع السد في روكا.. بالإضافة إلى شركتي ونصف الشركة التي باعها لي ريكي، لكن هذا لا يجديك نفعاً.. الطمع كان سبب دمارك.. لقد خُدِعت غارينتي، ولا شيء تستطيعه.. فكل شيء قانوني.

قالت يارا:

ـ أيها الحشرة! أعتقد الآن أن الطريق مفتوح لك لجني أرباح من خداعك.

قال بصوت بارد:

ـ الآن سأقول لك ولوالدك من أنا.

ـ أمير.. أمير الخداع، أمير الكذب، والفساد، والانتقام المرير..

قاطعها بهدوء:

ـ وأنا كذلك أحد المسؤولين الرسميين في مصرف الاستثمار الأوربي.

فغرت يارا وأبيها فميهما بذهول..

أكمل وعيناه تفضحان غضبه وعدائيته.

ـ مهمتي الأساسية التحقيق في عمليات الاحتيال والادعاءات الزائفة والتقديرات المخادعة، وبشأن المتعهدين الذين يبيعوننا دائماً مواقع بثمن مرتفع ويجنون أرباحاً كبيرة.. بكلام بسيط يارا: لقد أوقعت والدك بالفخ.

ـ والرجال في روكا؟

ـ زملائي.. ويعرفون ما كنت أفعل.. كنا نرغب في ضبط والدك منذ زمن.. هو الفاسد الراشي ليصل إلى النجاح.

صاحت معوّلة:

ـ لا..! لن أضدقك! أبي!

أكمل نيرو دون اكتراث:

ـ لقد علقت صورة الموقع في روكا أمام أنف أبيك.. وأنا أعرف أنه لن يقاوم ارتكاب جريمة أخرى هناك.

همست: جريمة أخرى؟

نظر إلى أبيها بازدراء بارد:

ـ مارتن غارينتي اشترى موقع المستنقعات في روكا منذ سنوات وأنت طفلة، يعرف أن على الناس هناك أن تسكن في بيوت جديدة بسبب حالة القرية.. وزور أوراقاً ليبدو الموقع أكبر وأكثر ارتفاعاً.. وأخر البناء ليس لأشهر بل لسنوات، وسحب دفعات شهرية من التمويل مدعياً أن هناك صعوبات تحتاج إلى مصاريف.. وقام برشوة المشرفين ليبالغوا بإظهار الصعوبات، ليكون من حقه طلب المزيد من المال.

رعد الأب:

ـ أيها الوغد.. أنت تدمرني!

ـ لقد دمرت نفسك! ودفعت ثمن خداعك.

رأت يارا أنه لم يعد يرى ضرورة للصمت فقد خلع قفازه.. وأخذت تنقل عينيها بين الرجلين المهمين في حياتها، والقنوط يكاد يخنقها.. وأكمل نيرو:

ـ المبلغ الذي دفعته كرشوة سيذهب بكل لطف إلى إعادة إسكان الناس في روكا.. وهو انتقام لذيذ بالنسبة إلي.

قال مارتن:

ـ الموقع في كرونويل..

ـ الموقع ليس مناسباً لما تقترحه من مشروع، والمسؤول الذي حقق بأمره لا يعرف ما فاته.

وأدار عينيه بطريقة مهينة على جسد يارا:

ـ لقد كشفنا أمر الرجال الذين قبضوا رشوة منك لأجل تقارير

مزيفة.

رفع رأسه مصغياً وسمعت يارا صفارة سيارة الشرطة.. فسألت برعب:

ـ هل ستطلب اعتقال أبي؟

سأل بوحشية:

ـ أليس هذا ما يحدث للصوص؟ لقد حدث لأمي ولم تكن مذنبة.

احمر وجهها:

ـ سأقول لهم كيف رشوت رجال الشرطة حين كنت مسرعاً..

ـ أنا لم أرشهم.. فقد استمعوا إلى شرحي حول سبب انزعاجك في النفق وأظهرت لهم بطاقة التعريف عني.. وفهموا سبب اضطراري لإيصالك إلى مكان آمن قبل أن تفقدي صوابك.. أنا رجل موثوق هنا.. والمحققون التابعون للمصارف محترمون جداً.. وليس هناك شيء غير شريف في طريقة حياتي.

ـ لكنك لم تنكر يوماً إشاعات الصفقات المشبوهة..

ـ من واجبي أن لا أنكر شيئاً.. إذا كنت مضطراً للتحرك في الأوساط الإجرامية فمن المفيد أن يظنني الناس واحداً منهم.. في وقت أنا أكثر شرفاً من حقيقتكما معاً.

قالت يائسة:

ـ هذا غير صحيح، إذا كنت متورطاً بهذا المشروع، تريد بناء السد بنفسك.. وبشركة فوغارتي وحصة ريكي من شركتنا تستطيع هذا! أليس هذا أمراً غير قانوني.. أن يشارك مسؤول في شيء يستقصيه بنفسه.

ـ يارا.. أنت لم تصغي إلى ما كنت أقوله جيداً.. والدك اشترى شركة فوغارتي وأصبح شريكاً لك في شركتك بعد أن بعت له حصتي.. وكلا الشركتين لا قيمة فعلية لهما.. لكنه أراد شركة البناء لتكون الواجهة لإدارة مشروع السد.. وأراد كل شيء. لكنه لم يفكر بواقع أنني أفلست شركتي متعمداً وحرمت شركتك من كل ممتلكاتها.

قالت مرتجفة:

ـ إذن لقد أفلستني أنا كذلك.

صاح مارتن:

ـ أنت لست مهمة! ماذا عني أنا؟ شقاء عمر كامل! من العذاب والعمل وعقد الصفقات.. بحق الله فوغارتي! لقد زورت الحسابات في شركتك! وهذا تزوير.

سأل نيرو:

ـ أمر رهيب.. أليس كذلك؟ سوء حظ لك.. لقد فعلت هذا بكل قناعة وتشجيع من دائرة الضرائب والجمارك.. وصلت الشرطة.. هل تنوي تعريض ابنتك لفضيحة مؤلمة أم أنك ستخرج إلى الردهة بإرادتك؟

صاحت بصوت مثير للشفقة تتعلق بأبيها: أبي!

دفعها مارتن صائحاً:

ـ بالله عليك يارا! لا تأتي إلي طلباً للرثاء.. أنا أحتاج كل رثائي لنفسي.. لقد أصابني في مكان قاتل.. في الشيء الذي أحبه أكثر.. في عملي الفخور به.. ألا يمكن أن تفهمي أننا هزمنا؟

همست: نحن؟

ـ نيرو خطط لهذا الموقف منذ لحظة عرف أنني تبنيته.. عمل لساعات وساعات يدرس، يجبر نفسه على عدم النوم ليلاً ويصاب بالإرهاق، يدفعه حبه للانتقام مني. لا يمكنك محاربة رجل كهذا يارا.. إنه يستخدم كل خدعة ليصل إلى هدفه.

ـ لكن لماذا لم تعده إلى صقلية.. أو..؟

ـ كنت سأخسر ماء وجهي.. وبدقة أكثر كنت سأخسر كل التسهيلات التي اكتسبتها من تبني ثلاثة منكم.. والعمل.. عمل.

سألت يارا:

ـ ماذا تعني يا أبي؟

ـ حسناً.. أنا لم أتبناكم بدافع الحب.. كانت تلك فكرة صوفي وليست

فكرتي.. لكنك كنت فتاة جميلة ومتشوقة للعلم.. وكنت أريد أن أجعل منك امرأة أعمال جيدة يارا.. لولا تدخل هذا الأرعن.

خرج من المكان دون نظرة إلى الخلف.

مصدومة، وقفت يارا مسمرة في مكانها.. نيرو كان على حق.. والدها كان ينوي إفسادها هي الأخرى.. امتزج صوت صفارة الشرطة مع وقع طبول الجنازة وهي تقترب، وأخذ الإيقاع يضج في أذنيها يجعلها راغبة في الصراخ.

أحست بضحالة أنفاسها وسرعتها.. والدها لم يكن يريدها هي.. لقد تبناهم جميعاً لخداع ما.. وغطت وجهها بيديها.. وأخذت تتأرجح إلى الأمام والخلف وهي بعيدة جداً عن الدموع.. تعذبها أصوات الطبول الحزينة تدخل إلى الساحة أمام القصر.

قال نيرو بصوته العسلي الشرير:

- والآن من أنت؟

همست:

- لقد انتقمت مني.

- هناك ما هو أهم يا حبيبتي.

بخوف رفعت أصابع مرتجفة إلى شفتيها، نيرو كان على وشك تفجير إحدى نوبات غضبه. فركضت هاربة من الغرفة.. لكن في اضطرابها الشديد، استدارت إلى ممر خاطىء لتجد نفسها في نهايته أمام باب خشبي ضخم.. ونيرو خلفها.

تأوهت بجنون وفتحت الباب.. لتجد نفسها تهوى من فوق سلم حجري نحو الظلام، وكان لوقوعها صوت صدمة مرتفعة.. رفعت نظرها إلى فوق لترى نافذة من القضبان الحديدية على مستوى الطريق وأقدام في أحذية سوداء، وجوارب سوداء، تسير بخطوات رتيبة.

جاءها صوت نيرو الغاضب:

- يارا.. ليس هناك ضوء في الأسفل! أخرجي من هنا!

كان يقف عند عتمة سلم القبو.. وهي تعاني من رضوض، تحركت إلى الداخل مبتعدة عنه والرعب يعصر قلبها. بدا لها أن غضبه ينصب نحوها كسيل بركاني ذائب ثم.. في العتمة، في الغبار، الوحل، والألم في صدرها.. تذكرت.

- نيرو!

جمد.. أفزعه صوت الطفلة الذي خرج من شفتيها.. بقفزة واحدة كان إلى جانبها، يحضنها بين ذراعيه.. لفت يارا نفسها بشدة حوله ثم وجدت صوتها الطبيعي مرة أخرى.

- لقد فهمت.. مفاتيح اللغز.. كنا نأكل الآيس كريم، ريكي وأنا.. لأنه كان يوم عيد.. البالونات في كل مكان، ووضعنا الزهور بين قرون البقر.

قال نيرو بلطف:

- هذا صحيح حبيبتي.. ثم ماذا؟

ارتجفت، فشد عليها أكثر.

- توقفت الطيور عن التغريد.. وبدأت مياه البئر ترتجف.. وركضت الكلاب إلى أوجارها.. وكنت أنت تقف بالباب.. تحمل رسالة إلى أبي.

قال نيرو:

- كانت رسالة تحدي من أبي له، صفحة كاملة من الإهانات.. جزء من الثأر المستمر بينهما.. أتذكرين؟ لم يكن يُسمح لنا باللعب معاً.

تراجعت عنه قليلاً:

- أجل.. أنت وعائلتك كنتم من المحرمات.

اتضح لها الآن رعب ما حصل فقالت:

- أخذت الأرض تميد من جهة إلى أخرى ومن تحت إلى فوق! ركضت نحونا وحميتنا بجسمك.. ثم ساد الظلام، وكنت متألمة والصوت الراعد يصم أذني.

سألها بهدوء:

- وهل لديك فكرة كم بقينا عالقين ما بين الأرض والمباني؟

- لا.. أذكر فقط أنك بقيت تحدثنا حين كنت تظننا قد غفونا.. لقد أنقذت حياتنا.. أوه نيرو! لقد أنقذتني.. أنا ابنة الرجل الذي ألحق العار بأمك!

- كنت طفلة حبيبتي.. وأحببتك من بعيد. أنقذتك بغريزتي.. ودفنا ما يقارب اليوم ونصف تحت الأنقاض.. والداك، والداي، أخوتي، ومعظم سكان القرية قتلوا.

تأوهت تقول بلهجة صقلية وهي تتذكر:

- ماما.. كانت دافئة حنونة، ورائحتها مشبعة بالخبز الطازج.. كانت تصنع لي ولريكاردو خبزاً على شكل رجال.. لا أستطيع تحمل التفكير بأنها ماتت هكذا!

- كانت هزة أرضية فظيعة.. والآن تفهمين سبب وجود مباني القرية القديمة بهذه الحالة.

- كان هناك جنازات مستمرة.. ومواكب طويلة سوداء.. والناس يبكون في مناديل حريرية سوداء!

- هذا صحيح.. ظننتك ستتذكرين هذا.. في الواقع كانت المناديل خرقاً مأخوذة من الفساتين.. فالناس في القرية فقراء وليس بمقدورهم شراء مناديل حريرية، ومنذ ذلك الوقت أحمل منديلاً أسود في جيب سترتي العليا، كإشارة وكنوع من العهد.

- العهد.. كنا في المستشفى..

- أجل.. كنا في خيم مؤقتة بدون أماكن سكن مناسبة لفترة.. وكان مارتن غارنيتي يمر بالجزيرة يفتش عن مكسب ما يجنيه من وراء الكارثة، ووجدتكما صوفي أنت وريكي، جائعين وقذرين، في خيمة، وامتلأ قلبها حباً لكما.. رأى مارتن كيف أن نظرات العداء ذابت أمام اهتمام صوفي المحب بكما، فاخترع قصة التبني فوراً.. لكن كان هناك رد فعل إعلامي على هذه

«البادرة الكريمة» حتى أنه وجد نفسه يتبنى الصبي الذي أنقذ حياتكما أيضاً.

- أولم تعارض يومها؟

- كنت في نصف وعي.. ردة فعل متأخرة على الصدمة.. حدثت بعد بضعة أيام من إنقاذنا ونقلنا، وإلا لما كنت وافقت.. ليس لمشروع دعائي.. ليس والمسألة كانت تعني أن أكون الأخ الإجباري لأولاد عدوي.. ولقد أقسمت يومها لأبي الحقيقي أن أكره كل إنسان في منزل فيريو بوراندي لأجل شرف أبي.

- هكذا جعلت من نفسك كريهاً.. أوه.. نيرو! أنا آسفة! كم أتمنى لو أن شيئاً من كل هذا لم يحدث!

- لقد تذكرت وهذا يكفي. لا نستطيع تغيير الماضي، الآن ربما يمكن إطلاق سراح مشاعرك.. ويجب أن أعترف. كنت أحاول من خلال مفاتيح الألغاز أن أثير حيرتك وألهي نفسي، كنت أكره رؤيتك تكبرين في محيط بارد بلا مشاعر مثل مارتن غارينتي.. لأنني كنت أعرف حقيقة طبيعتك..

- لكن لماذا نسيت كل هذا بينما يذكره ريكي؟

هز كتفيه:

- لا أعرف.. كنت أكثر منه رقة قلب، ولربما صدمك ما حدث أكثر منه.. وكان يناسب مارتن اعتقادك الراسخ أنه والدك الحقيقي.. كان معجباً بقوة شخصيتك واجتهد لتشكيلها على شاكلته، وخطط كي ترثي منه كل شيء، وهو يعرف أنه خسر ريكي من اللحظة التي التقينا فيها مرة أخرى.. حين جاء بي إلى انكلترا.

- والدي.. ماذا سيحل به؟

- لا شيء خطير.. التهم ستنحصر في التهرب من الضرائب. لقد خربت له مصداقية عمله.. وهذا ما سيؤلمه بما يكفي.

تركتها ذراعاه ووقف ينظر إليها بوجه رجل مرّ بالجحيم.

- في يوم ما.. حين تشعرين أنك قادرة، يجب أن تتكلمي مع ريكي

وستعرفين منه معاناة أهل روكا وهم يعيشون في الخيم لأربع سنوات يتجمدون برداً في الشتاء، منتظرين انتهاء إعادة بناء قريتهم، عندئذ ستفهمين بشكل أفضل لماذا كنت قاسياً على مارتن غاريتي.. ولماذا كنت قاسياً عليك.

قفزت تصيح وتتمسك بذراعه متلهفة:

ـ لم أكن شريكة له في الخداع أقسم على هذا! لا أستطيع تحمل التفكير كيف خدعني!

ـ أوه.. إنه يحبك يارا.. من بيننا نحن الثلاثة كان كريماً معك.. نصف الرجال في كريستندوم تقاتلوا لأجلك.. أليس هذا صحيحاً؟

ضحكت بارتجاف:

ـ مبالغة إيطالية مثالية.. الرجال الذين أملوا في الحصول على شيء مني عادوا بخيبة أمل، وأنا آسفة.. وربما لو كنت بقيت أنت في صقلية، لما كبرت لتثأر لنفسك من العالم.. والنساء بشكل خاص.

ـ النساء؟ أنا لم أعط النساء يوماً أفكاراً خاطئة.

ـ لقد آلمت كل واحدة من صديقاتي..

ـ حلوتي يارا.. لقد وضعت لنفسي قاعدة أن لا أقرب عذراء.. إنهن يشكلن متاعب كثيرة، وأنا بالتأكيد لم ألمس واحدة من صديقاتك. هل هناك ما يزعجك بعد؟ تلك المرأة التي فتش رجل الجمرك حقيبتها ووجد ملابس داخلية؟ إنها زميلة عمل من المصرف، محققة مثلي وسأقدمها لك مع زوجها وطفلها. صديقتك جين؟ أعترف أنني فعلت هذا لأغيظك، ولأعرف أكثر عن أعمالك.

قالت بأسى:

ـ إذن.. الأفضل أن أعود.. ليس هناك شيء يقال بعد. وهناك أمور عديدة علي الاهتمام بها.

ـ تعودين إلى روكا؟

ـ يا إلهي! لا! إنني أكرهها! آسفة نيرو، أعرف أنها تعني لك الكثير..

ـ يا حلوتي، وأنا أنفر من ذلك المكان.

ـ ماذا؟

ـ لي فيه ذكريات رهيبة.. كنت واعياً طوال الوقت، أسمع وأعرف ماذا يجري.. كلما زرت روكا، تؤلمني الذكرى والتفكير بالدمار وفقدان الأرواح. كنت أقيم هناك كرمى لريكي ولكي تستعيد القرية تاريخها القديم، وتبدأ بالتمتع ببعض الحضارة التي أنكرت عليها زمناً طويلاً.. لكنني أكرهها.. أنا رجل مدينة أحب الأرصفة والمطاعم، الأوبرا والمسارح والاستعراضات.

أشار لها برأسه فلحقت به على السلم، تدعك جسدها المرضوض.. فقال:

ـ آه.. اعذريني.. لقد نسيت أنك وقعت.. تعالي، سنحضر طبيباً في الحال.

ـ لا داعي.. أريد فقط أن أستلقي لفترة.. ثم سأغادر، لأبتعد عن طريقك.

رافقها لتصعد السلم ببطء بدون مساعدتها وكانت تأمل لو يساعدها، فقد يعطيها هذا فرصة لتقول له إنها تحبه وتعترف له بضعفها وتعلقها به.. لكنه عنيد، وكما قال يوماً، إنه قاس على نفسه أكثر من قسوة أعدائه عليه.

استلقت ووجهها إلى الأسفل فوق السرير، مسترخية تشعر وكأن أشياء كثيرة ماتت في داخلها..

يدان باردتان بدأتا تدلكان كتفيها.. فأجفلت، ثم استسلمت لقدرها.. تعرف هاتين اليدين جيداً. وتعرف أنهما لنيرو.. وتسارعت نبضاتها..

راح يدلك كتفيها ليساعدها على الاسترخاء.. ثم استدارت على ظهرها ونظرت إليه بإغراء.. وتمتم وعضلات وجهه مشدودة:

ـ هذا ظلم.

ـ أنت تقرأ العيون.. فاقرأ عيني.

ـ أنا . . لا أثق بما أراه . . أظن أنني أصبحت أمياً لا أعرف القراءة .

ضحكت بخشونة ، ثم تنهدت . . وقالت تتمطى بإثارة :

ـ من المؤسف أنك وضعت قواعد خاصة للنساء .

بلل نيرو شفتيه بلسانه وقال مستغرباً :

ـ قواعد؟

ـ أجل . . حول العذارى . . ولا أظنك ستخرج عن القاعدة معي؟

لزمه وقت طويل ليستوعب ما قالت . . وما إن خرج من ذهوله حتى تمتم فجأة في أذنها :

ـ أحبك يارا .

سرت قشعريرة نارية في جسمها كله ممزوجة بألم لا يحتمل .

ـ الحب؟ أنت تحبني؟ أنا فتاة مدينة لا تعرف كيف تطهو الطعام . .

ـ حبيبتي . . أعرف أن الأمر سخيف وغير منطقي وأنني أبله لوقوعي في حبك . . لكن ها نحن . .

دافعت عن نفسها بسرعة :

ـ ليست المسألة سخيفة إلى هذا الحد . . ولا أكثر سخافة من كوني أحب فاتن نساء مخادعاً متسللاً . . يعرف كيف ينفذ ما يريد . .

ـ لا عجب إذن أن بضع رجال لم يتوصلوا إلى أكثر من تحية عمت مساء منك . . لا بد أنك أجبرتهم على البقاء في سياراتهم قبل أن يعرفوا ما أصابهم .

ـ وأنا أستطيع تصورك تتسلل بخفة من بين مخالب امرأة ، بكلمات قليلة مختارة تجعلها تظن أنك فارس تحترم شرفها .

ضحك نيرو متكاسلاً :

ـ بطريقة ما ، لا أظن أن لدينا خيارات كثيرة . . أليس كذلك؟ لا يمكن أن نكون قساة القلب في إطلاق ما في أنفسنا على الآخرين . . ألا تعتقدين أننا نستحق بعضنا؟ لا أستطيع التفكير بشيء أفضل من العودة إلى المنزل ، إلى زوجة لذيذة سليطة اللسان ومسلية .

ـ لست أفهم .

تلاشت نظرة البراءة من عينيه ، ليحل مكانها نظرة المشاعر البدائية ، والحنان . . وارتجفت يده وهو يرفع أصابعها إلى فمه يقبلها . وكرر :

ـ ألم تفهمي؟ أريدك زوجة . . . أريدك إلى الأبد . .

نظرت إلى عينيه والحب في عينيها يعد بوعود كثيرة . نعم ستتزوجه وسيكون سيداً على قلبها وروحها وعقلها .

***